الوجــع
الغريب

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

مصطفى الدناصورى

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى

- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -

الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢

٠٠٢ -٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥

E-mail: alnokhoba@gmail.com

الوجع الغريب

رواية

لخضر بن الزهرة

٢٠١٧

إهداء

× إلى أمي وأبي وإخوتي، ومن يصدق في حبه لي من أهلي..

×××

× إلى أصدقائي المقربين؛ الذين معزتهم فوق كل وصف.. فيهم الصديق وفيهم الأخ الذي لم تلده أمي.. من الجزائر الشامخة: الحبيبة الأولى والأخيرة، ومن الوطن العربي الغالي.. يصعب ذكرهم في هذه الأسطر.. لأنهم رائعون إلى حد أعجز فيه عن تمييز أحدهم عن الآخر بإدراج اسمه..

×××

× إلى أصدقائي في العوالم الافتراضية من مختلف الأوطان..

×××

× إلى كل إنسان يؤمن بالإنسانية، وبالكلمة الراقية..

×××

× إلى من يحبني بصدق: «لك في القلب مكان يليق بك»..

×××

إهداء خاص

إلى التي تقف قريبةً من الروح والقلب في كل حالاتي،

وتصنع من اللحظة حالةً من التسامي والرقي الروحي،

وتصنع الابتسامة رغم عثرات القلب في مطبات الوجع..

أقول لها: كوني دومًا الأفضل.. كوني دومًا بخير..

×××

كل نزف هو حجامة من الطبيعة،
يخلصك من ترهل الذاكرة،
ومن سمية المخزون الموجع.

الفصل الأول

- ١ -

في غرفة بيضاء استفاق على يد تلامس جبينه وتدعوه لذكر اسمه.. في حالة من الدهشة راح ينظر إليها وكأنه نسي اسمه عندما وعى أن هناك مشاهد محذوفةً من الذاكرة!

استجمع قواه وقال: أين أنا؟ قِيلَ له إن سيارةً أوقفت نبضه في حادثة مروعة، وكسرت بعضًا من عظامه ونقشت كثيرًا من الجراح في جسده.. لم يدروا أنها حطمت أمنيةً كان يركض من أجلها.. وبقي على سرير أبيض ساعات لم يسأل عنه أحد! ولا زاره أحد! ولا حتى حبيبته التي كان يحلم بطيفها ويحلم بمغازلتها.. لم تزره؛ لا في الحلم، ولا في غيبوبة الوعي..

راح يستجمع قواه ويستحضر ذاكرته ليجمع شتاتها قبل سقوطه في دائرة الجذب بين الحياة والموت؛ لتنتصر الحياة وتعلن أنها ما زالت قائمةً إلى أجل غير الأجل.. انسحب الموت لأن أوانه لم يكن.. وأشرقت بعض تفاصيله بالحياة.. وراح يكتب..

×××

سهر الليل كله يكتب بكل ألوان طيف مشاعره، وبكل ألحان البوح الهادئة والصاخبة.. كان يرسم بعض التوقفات الفاصلة، وكانت ترسمه بعض التوقفات الاضطرارية.. كتب بالدمع والدم والأنفاس والحبر الأسود والأزرق، واختار نوع الخط وحجمه، وزين الصفحات بإطار مزخرف جميل، ورقم صفحاته كأنه يؤرخ لحياته سيرةً ذاتيةً..

جمع الأوراق ولفها بنبضه قبل أن يضعها في حافظة.. قرأ عنوان وجهته ومكان إلقاء أمسيته الشعرية.. غسل وجهه بندى الأمل النابض منذ تلقى الدعوة.. ثم؛ لبس بدلته الوحيدة وحذاءه الجديد الذي ادخر ثمنه منذ أسابيع بعيدة، وخرج جريًا يواجه العالم ويقول: «سأسمع الناس صوتي أخيرًا، سأغازل أنثاي التي ستكون في زاوية من مسرح الأمسية».

انطلق بكل طفولته المكبوتة وبكل شاعريته الجريحة، وعندما هم بعبور الشارع البعيد سقط المشهد من الذاكرة، وسقط هو في المشهد المرئي للجميع.. أوقفت سيارة مجنونة جنونه، وأوقفت نبض قلبه ووقع صريع حلم.. قالوا عنه: مات وانتهى، إذ لا حياة في قلبه، ولا نفس يتردد! بكت العصافير من حصار الموت الموشك على اختطافه ولم يبكه البشر..

فقد أوراقه، وفقد العنوان الذي أراد السير إليه.. كون ذاكرته هشةً فإنه يصعب عليه تذكر عناوين معقدة لم يكتبها على ورق.. خرج إلى الشارع بعد أسابيع كسير القلب بعد شفاء كسور البدن..

لم يلق شعره على ذاك المسرح، ولم يسأل عنه أحد! ولا عادت إلى مخيلته تلك الأنثى التي خانته في لحظة عناق للموت.. هل ظنته عاشقًا للموت وخائنًا للحلم القديم؟

مشى أيامًا يبحث عن تلك القصيدة بين أحشاء حلمه؛ يريد بعثها من جديد.. ربما يتذكر بعدها عنوان المسرح وملامح حبيبته.. لكن؛ رحل قبل كل هذا.. رحل بعيدًا..

كان يبحث عن نفسه فصارت النصوص بعد زمن تبحث عنه كي

تدون بين أسطرها حكايته.. هل يلتقيان بعد ذاك الرحيل؟ أم هو الرحيل الأخير؟! هكذا كنت أسأل نفسي..

بعد شهر من الحادث وقف لأول مرة أمام شباك غرفته يتحدى خوفه ووجعه.. كان سالبًا له منظر الغروب في لوحة تتجاوب مع أبجدية مشاعره.. تأوه بوجع تنبعث منه ضحكة ساخرة من آلامه: «لن يكون الغروب الأخير حتمًا!»..

×××

- ٢ -

الغروب الأخير؛ رواية اعترض على عنوانها أحد الأدباء[١] الذين أقدرهم، وقال لي إن عنوانها يائس! تفهمت وجهة نظره في أبعاد العلاقة بين النص والكاتب، ومدى تأثير نسق المكتوب في نفسية صاحبه..

ولكن بعد محاولات للكتابة المشرقة أدركت أني لم أكن أكتب للوجع برغبة، ولكنه هو من كان يكتبني، وأن مساحات الفرح كانت فصولًا راحلةً وحسب.. كثيرًا ما كان الوجع يتراص فوق المسرح مشاهدَ وعلى الورق حروفًا وعلى جدران الغرفة أنفاسًا، ويدخل بين السطور في كتاباتي..

للحرف موسيقاه وعذاباته، وأنا عندما أكتب أقتطع شيئًا من روحي، وأكتب أحيانًا وأنا أستمع إلى الموسيقى؛ فتكون الكتابة كلحن موسيقي..

أذكر هنا (بابتسامة!) قول العديد ممن قرأ لي؛ يحكي لي عن موسيقى ونغم الحرف الذي أكتبه منثورًا، وسيطرة الموسيقى الشعرية عليه.. وأنا أحدثك الآن ارتسم سؤال ذاتي؛ هذا نصه: هل من الممكن أن أتخلص من هذه الشاعرية الفادحة في أنفاسي وكتاباتي؟

×××

لم تكن لي إجابة على سؤاله، اكتفيت بالابتسام مثله.. جميل أن نبتسم رغم الكم الهائل من وجعنا وفوضانا!

تأوه بعمق وارتعش كله، نبأتني حالته هذه بنوبة بوح فوق العادة..

كانت ليلةً حافلةً بالمشاعر.. عصارة سنوات من الوجع والحلم سكبها في ليلة بوح مستفيض!

١- هو الشاعر والأديب والمترجم الأستاذ «محمد بوطغان».

- ٣ -

رفع رأسه بعد أن تحول إحساسه إلى يقين بحضوري في المشهد، وفي لحظة وعي باللحظات الجامعة بيننا سألته:

– ما بك؟

– مشتاق! (وفاضت عيناه بدمع ونحيب مكتوم..)

– ألحبيبة؟ أو غال عليك؟

– ربما لا هذه ولا ذاك!

– ما رأيت مشتاقًا بهذا الوجع إلا لحبيب أو لديار فيها ذكرى لا تقتلعها أعاصير السنين!

– هي نفسي! هي ذاتي!

– وأين أضعتها؟ ومتى؟

– منذ ما يزيد عن العمر.. منذ وعيت فن الرسم؛ رسمتها في واحدة من اللوحات التي بعثرها الريح في فوضى الأيام المتعاقبة.. كتبت عليها توقيعًا ضيعه المطر، وضيع ألوانها وخطوطها الأولية التي تعودت أن أبدأ بها انحناءات البوح ...

– دعنا نكن أصدقاء!

– ما جدوى ذلك! وأنا الغريب هناك وهنا!

– أنا أبحث معك عن ذاتك بطريقتي.. أنت الفظ شكواك في وجه الشمس غضبًا وفي وجه القمر عتابًا، وأنا أكتب من فيض نزفك لوحات قد تشبه بضعها لوحتك الأساسية؛ فنعرف معًا بصمة إمضائك، وربما نصل معًا ... أنت إلى أنت وذاتك ... وأنا أصل إلى حلم أجري وراءه منذ عمر!

وفي لحظة أكثر وعيًا صرخ في وجهي:

– لا أحد يمكنه اختراق مجال صمتي إلا بإرادتي؛ فمن أنت؟ من منحك سلطة الحضور بهذه الطريقة؟!

هنا؛ كان لا بد أن يعرف من أنا، فأزلت القناع الذي كان يلغي وعيه بالصوت ويتيهه عمن أكون.. عندما تجليت أمامه انبهر بما صدم حالته نصف الواعية لتحضر كلها في المشهد الجامع بيننا..

رغم الهالة السوداء، ورغم شحوب الوجه، ورغم فوضى شعره إشعاعات عينيه ما زالت تحتفظ بذاك الإبهار لحظة اللقاء.. لم يستطع إلا أن يكون مبهرًا كما عرفته: «أميرتي وسيدة الذاكرة وحبيبتي أستحلفك بالله أن ... ».

كانت رعشاته تشتد وهو يقوم منتفضًا من صمته وكاسرًا صمت المكان، وراح يعانقني بكل الحرارة التي عرفتها فيه ... أيمكن لي أن أعاتبه بعد هذا العناق؟ وبعد هذا الاحتواء؟

كانت دموعه تربكني وهي تسقط مباشرةً على قلبي! أيمكن أن أوجعه بالأسئلة بعد هذه الدموع الموجوعة؟ هل هذا الارتماء العميق احتياج كامل؟ أم هو نزوة ألم يعقبها رحيل مجدد؟ هل يسألني كيف أتيت؟ أم يكتفي بأني أتيت؟

اندفاعه إلي بقوة يزيدني ضمًّا له، ويدي عبر خصلات شعره أمارس بها فصول الأنوثة كلها ابتداءً بالأمومة وصولًا إلى رعشة الحبيبة! تدفق دمه أحس به على صفحة صدري المشتاقة لكتاباته ولإغواءاته ولجنونه ولعبثه...

كم موجعة النشوة باللقاء الممزوجة بالخوف من الفراق بعد آخر رشفة

من كأس التلاقي؟ هل من الممكن أن أندم على لقاء كهذا؟ أسئلة موجوعة موجعة ضائعة إجاباتها مضيعة أطروحاتها..

– حبيبتي!

عندما رفعت رأسه بيدين مرتجفتين رحت أقبل جبينه متجاهلةً كل التناقضات في الأسئلة، وقلت له بحجم الذاكرة المشتركة:

– اشتقت لك!

– مرحبًا بك في مدينتي مجددًا!

كان لا بد أن أعاتبه! لا يمكن أن أتجاوز هذا السؤال الموجع: أقدري أن أطاردك بعد كل نص مكتمل؟ أقدري أن أبحث عن مبررات الكتابة لأجل أن تستحضرني؟

– الرحيل لم يكن خيارًا!

– رحيلك والراوية أجبراني أن أضيع ست سنوات من عمري لأجل الإمساك بالخيط الأول للقائك!

ينهار باكيًا بعمق ما يحتويه من تاريخ للوجع.. يزيد ضمي له.. تزيد رعشة الاحتواء، ويزيد صوت البكاء عمقًا وامتدادًا.. يتوقف لحظةً ليمسح دمعه، فأبعد يديه اللتين كانتا تفركان عينيه بقسوة؛ وأمسح دموعه برقة تليق باللقاء وبه..

في ظل هذه المعطيات النفسية والشعورية المتخمة بارتجاع الماضي دفعةً واحدةً.. لم أرد أن أجبره على تحمل مشقة الرد، وهو بالكاد يستجمع أنفاسه لينظر إلي، أو يعدل استلقاءه على حجري..

– أتعلم كيف وصلت إليك؟ سأحكي لك الحكاية من آخر مشهد

جمعنا في فصول روايتك «انتكاسات ذاكرة»، فبعد رحيلك وخروجي من فقاعة الدهشة والصدمة إلى مساحات الوعي – بضرورة الدفاع عما أؤمن به وهو أنت والكتابة – رحت أبحث عنك..

×××

– ٤ –

انطلقت من عالم الحرف الذي تنتمي إليه بامتداداته واحتواءاته، فكنت أتلصص على قصص العشاق؛ فربما أجدك باسم مستعار، وكنت أطوف بين أحرف القصائد الوحيدة التائهة بنكهة الشوق والوجع – الثنائيةُ التي تميزك منذ عرفتك – وبين القصائد التي تجنست بجنسية ديوان ما...

كنت أتأمل الصور والمشاهد في القصص الحديثة، وكنت أراقب امتداد السرد بين فصول الروايات ومختلف الحوارات في نبرتها ولغتها، ثم صرت أتجول بين صفوف الحاضرين في الأمسيات الصادحة بنصوص لم تُدَون بعد في كتابات ورقية بحلتها الأخيرة..

وامتد بحثي إلى المكتبات ومعارض الكتاب؛ أبحث عن شيء في الرواية أو القصة بين إصدارات ٢٠١١ و٢٠١٥، ولم أهمل حفلات التوقيع والبيع بالإهداء.. كل هذا لأضمن أكبر فرصي للإمساك بك..

×××

كان يتجلى لي شغفك بالمسرح كتابةً ومشاهدةً، ولم لا تمثيلًا! لأنك أحيانًا كنت تكتب مقاطع وكأنك تعيش لحظات عميقةً على مسرح، فأدرجت على قائمة الشكوك فكرة العمل المسرحي..

بحثت عنك في ملصقات البرامج المسرحية، وقائمة المؤلفين والممثلين، وعناوين النصوص.. وبين رحلات التنقل بين المسارح أذكر أني وقفت على منصة مسرح محي الدين باشطارزي[١]، ومثلت يومها مشهدًا لم أتوقع أن أرسمه بتلك الطريقة..

١- مسرح محي الدين باشطارزي: المسرح الوطني بالجزائر العاصمة.

وقفت على المسرح حيث كان السكون سيد المكان.. تقدمت خطوات مربكة على الخشبة.. نظرت إلى جمهور الناس الذي ملأ المكان ليشهد على مشاعري.. ورحت أصرخ بوجع:

عد!

يا من رحلت في قمة حاجتي إليك؛ التفت وراءك..

انظر إلي.. اسمع وجعي ونداءاتي..

عد!

يا سيد حرفي ونبضي عد!

يا سيد وجعي؛ وجارحي حد البكاء عد!

أشتهيك حد الجنون وأشتاق إلى التوحد معك..

أشتاق إلى شفتيك تذكرني معنى السكر..

أشتاق إلى ضمك يذكرني معنى السحر..

أشتاق إلى احتواءاتك لتذكرني كم أنا أنثى تبهر في ليلة الاكتمال القمر..

بعدك موجع..

لا ترحل أكثر من رحيلك الأول، وعد!

أنتظرك منذ آخر الصباحات التي حزمت فيها أشياءك، ورحت قبل أن تعانقني أشعة الشمس،

ورحلت قبل أن أغسل وجهي بأشعة وجهك..

عد!

كفاك رحيلًا وبعدًا، فالانتظار حارق جدًّا، وموجع جدًّا..

يا من صنعت مني شاعرةً وعاشقةً، وأنثى كاملةً؛ عد!

ثم مددت يدي لك حيث لا أنت ولا أعرف أين أنت، وسقطت على المسرح مغشيًّا علي.. لم أفق إلا بعد استرسال الممثلين في مشهد آخر بعد حالة من الصمت صفق لها الجمهور بحرارة لما ارتسم أمامهم من مشهد صامت مدهش..

حسبتهم يصفقون لي.. قمت خجلةً من نفسي ورحلت إلى زاوية أستجمع فيها بعض ما انسكب من طاقتي على الحراك والبحث عنك في كوب وجع المشهد لأرتشفه وأنا أشاهد بقية المسرحية؛ لأكتمل في آخر العرض وأعود كاملة التفاصيل لأبحث عنك مجددًا..

×××

كان فبراير باردًا قاسيًا تلك الليلة رغم حرارة العرض في مسرحية مدهشة.. خرجت إلى الشارع الذي كاد يخلو من المارة أبتدئ البحث عنك مجددًا، فهالتني الفراغات على امتداد البصر.. العاصمة تنام – يا حبيبي – مع آخر شعلة للشمس..

هي لا تشبه العواصم التي لا تنام.. قِيل لي أن العشرية السوداء نمطت الحياة على هذا المنهاج، وحظر التجول كأنه صار عادةً أكثر منه ظرفًا وانتهى.. بائسة الشوارع دون عطرك!

بعد الرعشة الشديدة تذكرت وجعك بين عامي ألفين وخمسة وألفين وستة؛ وأنت تناضل لإكمال سنتك الدراسية في المحاماة، فتوجهت مباشرةً إلى الإقامة الجامعية للذكور (بن عكنون)، ووقفت في الرواق الذي وقفت فيه ليلةً كاملةً عندما عجزت عن توفير مكان للمبيت..

في تلك الليلة أخرجوك من المصلى بحجة أنه للصلاة فقط، ولا أحد تحمل مشقة الاجتهاد لأجلك، وذاك الذي مر أمامك وأنت لا تعرفه وهو يعرفك جيدًا ولم يحدثك بحجة أنه لم يرد التطفل عليك.. كم رعشةً حركت جسدك وجعًا؟! كم موقفًا بائسًا تراءى لك ليلتها؟!

في الصباح التالي؛ توجهت إلى كلية الحقوق.. افترضت أنك ربما أصابتك نوبة تحد جديدة لتكمل دراساتك العليا، وتثبت أن وجعك يقويك لا يكسرك، وكل نزف هو حجامة من الطبيعة؛ يخلصك من ترهلات الذاكرة، ومن سمية المخزون الموجع.. لكن؛ لم أجدك!

×××

خرجت إلى الشارع أتفحص المركبات ووجوه المارة.. في ذاك المشهد من رحلة البحث عنك تناهت إلي محادثة غريبة، وكلمات تداخل بينها الرحيل والغياب، فتطفلت على الحوار ...

– أستاذة؛ أريد التخلص منه.

– سنرفع دعوى تطليق للغياب، والقانون سينصفك للضرر الواقع عليك من هذا الغياب.

في جملة الحوار لم أجدها تبحث عن مصيره، ولا طرحت أسئلةً عما حدث له، وما يوجعها هو غياب يفسد مباهج الحياة في رزنامتها المليئة بالمواعيد والبرامج الاجتماعية.. أف.. أف.. ما هذا؟!

أنا أبحث عنك رغم غيابك القاسي ولم أسأل عن مبرر رحيلك عندما بحثت عنك.. قررت أن أكتفي بالعتاب يوم ألقاك، وما قبله فداك روحي

حتى أصل إليك أو أهلك دونك..

من يتنازل عن الآخر دون بحث ودون صناعة حبال الوصال فيه عيب عميق في المحبة، ولا يليق به أن يقول أنه أحب من غاب عنه وهو قلب كل الصفحات ليعيش لذاته هو.. هل أنا أبالغ؟

هل يعاتبني قارئ هنا عن هذه الرؤية وعن هذه المشاعر؟! أعتقد أن كثيرًا – ليس بالقليل – سيبرر لي هذا الرأي إن عرفك أنت وعرف كم أحبك..

عندما رأيت الأنثى المناداة بالأستاذة تلبس عباءةً سوداء بربطة عنق بيضاء عرفت أنها محامية. نعم؛ الآن تذكرت أنك محام مع وقف النفاذ، فهل تمردت على كراهيتك للمهنة أو كراهيتك لمن يدعي شرف المهنة، وانطلقت تدافع عن المغبونين في الحياة بأشكال مختلفة في مواقف لم يجدوا فيها نصيرًا لهم مثلما لم تجد نصيرًا من عالمكم البشري المليء بالتناقضات؟

أسرعت إلى المكتب الوطني لنقابة المحامين أبحث عن اسمك.. لكن؛ لم أجدك!

هل يمكن أن تصير قاضيًا وتختصر المسافة لإسعاف بعض الموجوعين في نيل حقوقهم؟ بعد رحلة في الأسماء الجديدة بين طلبة القضاء والقضاة الجدد في وزارة العدل ومدرسة القضاة لم أجد لك اسمًا مدونًا في أي قائمة.. يا للهول! أين اختفيت يا فلذة الكبد؟!

×××

كنت تائهةً في شوارع العاصمة حتى وجدت نفسي في نفق «أودان»[1] المليء بالصور الضوئية.. تذكرت حينها يوم وصفت لي مرورك عبره.. قلت لي إنك بحثت عن طيفها بين الأطياف المرئية ولم تجدها! وحاولت مرةً أخرى دون جدوى! أنا لم أجتهد كثيرًا فصورتك لا تفارقني.. كنت في كل الانعكاسات الضوئية، وكنت أمسح دموعي بضحكاتي لأني رسمتك بكل جزئية فيك.. لم أنس منك شيئًا..[2]

أخذتني الخطى بلا وعي إلى محطة الحافلات (تافورة) وأنا محتارة أي وجهة سأسلكها.. فجأةً أخذني مني صوت ينادي بقوة: باب الواد.. باب الواد.. (بلاصة)[3] (ماشي)[4].. باب الواد.. (خويا العزيز)[5] (جوز جوز)[6].. عمي محمد (ديماري)[7]..

كان صوت البحر يعبث برغباتي كلها ويشدني إليه، لذا تعلقت بالحافلة وانطلقت حيث كنا نلتقي..

١- نفق قريب من ساحة «أودان» بالجزائر العاصمة، واسمها تخليد لذكرى موريس أودان (٢٣٩١-٧٥٩١) الفرنسي المناضل ضد استعمار بلده للجزائر، وكان يدرس الرياضيات بجامعة الجزائر، ومناضلًا في الحزب الشيوعي من أجل تحرير الجزائر، ومات تحت تعذيب المظليين الفرنسيين، فتحول إلى رمز في القضية الجزائرية.

٢- مشهد مقتبس بتعديل مُسْتوحى من مشهد في رواية «انتكاسات ذاكرة» للكاتب.

٣- بلاصة من الكلمة الفرنسية (Place) ومعناها: مكان، والقصد أن هناك مكانًا واحدًا شاغرًا في الحافلة.

٤-ماشي: منطلق أو على وشك الانطلاق، ويقولها لإعلام الغير أنه على وشك التحرك.

٥- أخي العزيز.

٦- مر، أو تفضل بالمرور.. وذكرها مرتين للتأكيد والرجاء.

٧- انطلق؛ وأصلها الفعل الفرنسي (Démarrer) بنطق معرب.

أتذكر ما كتبناه بخصوص المشي فوق الماء؟ قلت لي إن «المشي بجوار الماء شيء ممتع، ولكن المشي فوق الماء شيء جنوني؛ لا يتقنه إلا العشاق المحترفون للحب المقدس الطاهر من كل الأدران، لأن الطهر هو الذي يمنح قوة الاستقرار فوق صفحة الماء»[1]. وإني كنت أرقص في آخر نقطة مرئية في المدى البعيد لصفحة الماء. الآن أنا أرقص لأجل روحك ولأجل الذكرى، وأركض بسرعة الشوق والأمنية فوق الماء، وأصرخ بقوة: أين أنت؟[2]

×××

تعبت من البحث، وأُرْهِقت روحي من فوضى الحكاية، فعدت أدراجي عبر أول رحلة متوجهة إلى قريتك. لم أستطع ركوب الريح، فكلي متعب. فضلت أن أصاحب الناس في رحلة برية.. لقد افْتُتِح الطريق السريع (شرق–غرب).. أنت كنت تسافر هذه المسافة الفاصلة بين العاصمة وبيتك عبر الطريق الوطني رقم ٥..

خرجنا من العاصمة، ثم خرجنا من حدود بومرداس، وبعد شوط في البويرة؛ ها هي ولاية برج بوعريريج تفتح ذراعيها للأهل والزائرين.. ها هو الانحراف يمينًا والخروج من مسار الطريق السريع والدخول في مسار الطريق الوطني رقم ٥، وها هي محطة حمام البيبان، وبعد مسار بسيط ها هي اللافتة مكتوب عليها (مرحبًا بكم في المهير).. بلدتك ترحب بي مجددًا..

١- من رواية «انتكاسات ذاكرة».

٢- مشهد مُسْتَوحى من مشهد في رواية «انتكاسات ذاكرة».

يتأوه، ويقاطع استرسالي في الحديث؛ ليقول: «(المهير)[1].. تلك الأرض النائية؛ الموبوءة بكراهية بعض أبنائها.. تلك الشاحبة وجعًا ونزفًا.. تلك المعفرة من سخرية (الشهيلي)[2].. تلك بالية الثياب، متجعدة الوجنتين، مترهلة النهدين، الصامتة حد الموت.. تروق لي.. أحبها.. أشتهي لقاءها.. أريد تمريغ وجهي بين أحضانها.. وأبكي بملء ما في من مشاعر أني رحلت عنها قدرًا لا نكرانًا، وعائد إليها أقبلها حيث رحلت بين تفاصيلها، وأصرخ عاليًا أني مشتاق.. مشتاق.. مشتاق جدًّا وأبدًا»..

ينظر إلي بعد آهة عميقة، ويحرك رأسه كأنه يطلب مني المواصلة في البوح والوصف للحالات المتعاقبة..

في حراش مشتة[3] نزلت من الحافلة التى غيرت مسارها من الطريق الوطني رقم ٥ إلى الطريق الوطني رقم ٦٠ متوجهةً إلى حمام الضلعة بولاية المسيلة..

تراءى لي في الأفق ذاك الجبل الجبسي المسمى (الرأس الطويل) وهو منكوب من كثرة الحفريات لاستخراج الجبس منه، والتي سُمِّيت المنطقة بسبب كثر الجبس فيه بالجباسة[4].. وأشجار الصنوبر، وجبال ترسم لوحة

١- المهير: بلدة الكاتب، من ولاية برج بوعريريج.

٢- الشهيلي: الشهيلي في تونس والجزائر: : السيروكو في الجزائر: القبلي في الجزائر وليبيا، الشرقي في المغرب: كاليما (amilaC) في جزر الباليار. والشهيلي هو ريح صحراوي جنوبي أو جنوبي شرقي، يأتي إلى شمال إفريقيا من منطقة مدقشقر، عنيف وجاف وحار، يهب على شمال إفريقيا والسواحل المتوسطية لأوروبا الغربية.

٣- حي؛ يُعْتَبر مركزه نقطة تقاطع بين الطريقين الوطنيين رقم ٥ (الرابط بين الجزائر وقسنطينة) والطريق الوطني رقم ٦٠ الرابط بين هذا الحي من ولاية برج بوعريريج وبين ولاية المسيلة).

٤- الحي الريفي الجباسة، وهو مسقط رأس الكاتب.

فنيةً جميلةً كثيرًا ما جمعتنا تفاصيلها في رحلات بوح وجنون.. صور كثيفة مفاتيحها: الرأس الطويل، غابة الصنوبر، جبل البيبان، صوت العصافير، عواء الذئاب، عمق الغابة الجامع بين السحر والرهبة..

ها هو يقاطعني مجددًا في عبارات موجوعة.. رعشة البوح عادت إليه بقوة:

أفتقد أشجار الصنوبر.. و(الرأس الطويل)[1].. وتلك الخلوة الممتدة إلى أفق (حرازة)[2] و(بنى وقاق)[3] والمارة بجبل (البيبان)[4].. أفتقد تلك الكراسة القديمة، والقلم الوفي الجاهز للبوح.. للنواح كثكلى.. للرقص كمجنون.. للتأمل كحكيم.. للحوار كدبلوماسي.. للحلم كعاشق.. للثورة كمحارب.. للعبث كطفل.. أفتقد ذاك الطفل داخلي؛ الذي يتأمل الشمس، وأشجار الصنوبر، وقطعان المواشي المارة من بعيد، ورفرفات العصافير والحجلان، ويلعب بالتراب، ويحفر على الأرض حرفًا مبهمًا يزخرفه كمن يتعلم فن الخط العربي، ثم يمسحه خجلًا من أشعة الشمس، وخوفًا من فضح مكنوناته.. يبستم لأنه استطاع الحفاظ على سره، ويبقى يستمتع بمعانقة الشمس.. يضحك أحيانًا ويبكي أخرى حتى يتعب من ممارساته المجنونة، وينام في خلوته في ركن عال من (الرأس الطويل)..

×××

١- قمة جبل صغير.

٢- بلدية مجاورة.

٣- قرية ثورية مجاورة.

٤- جبل بركانى خامد، مياهه الجوفيه ساخنة؛ تُستَغل كحمام طبيعي تحت اسم (حمام البيبان).

وصلت أخيرًا إلى بيتك.. أم منهكة ورغم ذلك منهمكة في أعمال البيت.. أطفال بعد المدرسة والمراجعة يلعبون ويصرخون، وأحيانًا تنشب بينهم معارك طفولية حول لعبة ما أو دور في اللعبة.. أب في آخر المساء يبحث عن أخبار جديدة في الوطن العربي؛ في ظل ما عُرِف بالربيع العربي..

مررت بهم على عجل ودخلت إلى غرفتك.. تغيرت أشياء لكن روحك ما زالت تعطر المكان.. تعلقت بتفاصيل المكان، وبالستائر وبالشباك، وتذكرت رحيلك في آخر مشهد دونته في ذاكرتنا المشتركة.. في لحظة استحضار الكم الهائل من وجع الافتقاد رحت أبكي غيابك، وفي رعشة بوح كتبت لك بنبضي رسالةً؛ استأمنت الذاكرة ألا تنساها حتى أقرأها لك:

هنا تسكن بقايا أنثى ما زالت ترصد تحركاتك كل يوم بالوجع نفسه وبالنشوة نفسها.. وتتمنى أن تلتفت إليها.. أن تلاحظ خصلات شعرها التي تمشطها لأجلك.. وتتمنى أن تشم عطرها الذي تتعطر به للحظات مرورك تحت شباك الذاكرة المقدسة..

انظر إلى شباك غرفتي وزجاجها العتيق.. لم أرض أن أغيره لأنه احتوى اسمك بزفراتي منذ أول يوم نبض فيه القلب لأجلك.. انظر إلى تشققات النافذة تشبه كثيرًا تشققات أرضي التي تحتاج مطر مشاعرك كي تستعيد الحياة..

انظر إلي، فمحتاجة أنا لتنظر إلي؛ فعيناي المرهقتان من السهر لأجلك، واللاهثتان وراء خيالك الذي يمر كل يوم في الساعات نفسها بالخطوات نفسها، والانسحاب من شراييني بالطريقة نفسها.. كلها حالات

تستحق – بسببها – أن تنظر إلي.. لقد صرت شاعرةً لأجلك، وبهت لون أرضي لأنها لم تعد ترى في غيرك شمسها ودفئها.. وما زلت أنتظرك هنا، وما زلت أنتظر التفاتةً!

×××

كنت أسافر طيفًا عبر المدى الممتد شرقًا وغربًا؛ شمالًا وجنوبًا.. مذكراتك كانت تتيح لي التكهن بالأمكنة التي من الممكن أن تستوعب وجعك.. في كل الأمكنة التي ألفتها معك لم أجدك فيها! وكل العناوين في الصفحات الأدبية لم تكن تذكرك.. فأين أنت؟

هل قاطعت الكتابة؟ هل قاطعت الحضور؟ هل يمكن أن تكون ميتًا؟! لا! لا يمكن هذا.. لا أحتمل أن يأتيني هذا الخبر حاملًا رائحة كفنك وتوقيع هزيمتي..

رافق دموعي فاصل موسيقي حزين كان يتردد من إذاعة برج بوعريريج ثم؛ تأتي حلقة مُعَادة بعد زمن طويل من برنامج «أسئلة الكتابة» من إعداد وتقديم الشاعر ابن بلدتك الأستاذ «محمد بوطغان»؛ ذكرتني بترددات صوتك كلها وأنت تقرأ وتتحدث عن مشوارك الأدبي وعن وجعك ...

رغم أنها لم تقدم لي شيئًا وأنا عايشت معك تفاصيل الحلقة هذه عام ٢٠٠٩ [١]، ولن تفيدني في العثور عليك، لكنها عززت إيماني بأنك حي، ولا بد من لقائك..

بين موجة من الدموع ضحكت لما تذكرت موقف صديقك «حمزة» وهو يفاخر بك أمام والده أن له صديقًا يكتب، وله حلقة مسجلة في الإذاعة،

١- الحلقة بُثَّت مساء الجمعة بين ١٨:١٥ و١٨:٤٥، بتاريخ ٢٠٠٩/١٠/٣٠.

ثم عندما يُطْلب منك إلقاء نص تبدأه بكلمة (حبيبتي)، فيقوم الصديق مرتبكًا ويسعل الأب خجلًا ويفر. ثم يلومك صديقك بعد ذلك لما فعلته به، وترد عليه: ليس ذنبي وأنت تعرف مواضيع كتاباتي.. يا له من موقف طريف! ضحكت حتى عاودني البكاء، حيث إني سمعتك مرةً ولا يمكنني سماعك أخرى إلا بالصدفة! كم تمنيت أن أحتضن أمك وأبكي بقوة في صدرها المليء بحبها لك..

×××

هل قدر أن تكون حكايتي معك صدفةً كأول رعشة شعر على ورقة أحرقتها ثم أحرقتني ورحلت، وتركت الذاكرة مصدومةً معطوبةً بالانسلاخ منها؟

×××

عاودت البحث في موجات الراديو، فاختطفني صوت يشبهك وجعًا في حلقة سمعتها في إذاعة قسنطينة.. بين كلماته سمعت اقتباسات من بعض نصوصك فانتابني أمل كحمى، وصار كلي يرتعش: أين أنت؟ هل أنت هو؟ هل هو أنت؟ بملامح أخرى؟

هل صرت تتحول مثلي كما كنت أنا كي أشبع حاجتك إلي؟ أم غرضك آخر؟ أم لتتذكرني؟ أم لتهرب مني؟ لكني سأعرف هذا عند اللقاء؛ فلمعة العين تقطع الشك باليقين! تستطيع التنكر.. تستطيع التحول.. لكن؛ لا تستطيع تحريف انعكاس روحك في بريق عينيك! أعرفك جيدًا..

وجاء القرار: السفر حالًا.. قسنطينة؛ يا حاملةً بين نسائمك صوت

حبيبي؛ اقبليني ضيفةً بين أحضانك البهية.. يا من روحه كانت تمر بين تفاصيلك أنا قادمة يا قسنطينة..

×××

في أول نسمة شوق سافرت دفعةً واحدةً حوالي المئة كيلومتر وزيادةً.. كان إكرامًا للذاكرة أن أنزل في مدينة سطيف لأتنفس هواءً جمعنا أربع سنوات هناك وأنت تدرس الحقوق. وقفت أتأمل غرفتك في آخر سنة دراسية في إقامة (الباز)[1]، ومدرج المحاضرات في القطب الجامعي الجديد (الباز).

تأوهت بآهاتك وأنت تنظر إلى سطيف من ذاك العلو، وتذكرت لحظتها (عين الفوارة) ونصبها الفاتن[2] فذهبت إليها أغتسل من مائها النقي العذب.. هل ستمارس تلك الشقراء المتوجة على عرش (عين الفوارة) سحرها علينا ونلتقي معًا مجددًا؟

أتذكر يوم كنت أتسلق تمثال تلك المرأة الفاتنة وأقف في الأعلى أغني لك وأنت تشرب حد الارتواء، ثم تلاعبني بالماء حتى أرتمي في أحضانك. وحيث أن ثقلي كان أقوى من توقعك لتحملني انزلقت قدمك ووقعت على ركبتك اليمنى. كنت أتمسك بك جدًّا، وبعد لحظة الدهشة انفجرنا ضاحكين. كان الحاضرون يحسبونك مجنونًا..

١- الإقامة الجامعية محمد الأمين دباغين، سطيف.

٢- نصب حجري، وهو أهم معالم مدينة سطيف، بناه عام ١٨٩٨ النحات الفرنسي فرانسيس دو سانت - فيدال إكرامًا للحاكم الفرنسي الذي أراد خدش حياء المصلين الذين يتوضؤون من ماء (عين الفوارة) لأجل الصلاة في المسجد العتيق المجاور.

كيف يُقَيِّم مدى جنون أحدنا من لا يرتشف من كوب ذاكرتنا المتخمة بنا؟ كم أتمنى أن أرتمي بين أحضانك وأُسَقطك بفعل ثقل الذاكرة ونضحك كثيرًا.. آه.. من يمسح دموعي الآن وأنت أنت لا أحد سواك بمقدوره التغلغل في ذاتي ولمس تلك الآهات وتلك الدموع.. أين أنت؟!

جمعت شتاتي في نسمة أخرى وسافرت بحثًا عنك في قسنطينة..

عندما وصلت حدود قسنطينة ارتسمت لي آية جديدة من آيات جمال الجزائر..

×××

— ٥ —

سائرًا على قدميك أو محلقًا تسحرك هذه الفاتنة الشامخة العميقة! هل يمكنني أن أعشق هذه المدينة بقدر يشككني في حب مدينة أخرى بمقدارها؟ هل حالة الحب هذه توافق ما يتردد في أعماقي أن قسنطينة هي أصدق حب من النظرة الأولى؟

قسنطينة: مدينة الجسور: مدينة الهوى والهواء، تلك الشامخة على الصخرة الكلسية والمستحيلة التكرار؛ لماذا لم أزرك سابقًا وأنت بكل هذه الجاذبية والإبهار؟! لماذا لم نكتب فصلًا للحب قبل يومنا هذا هنا؟ أنت تستحقين أجمل قصص الهوى وأروع القصائد وأبهى النصوص، وتستحقين نصًّا مكتملًا يُولَد هنا لأجلك لا أحرفًا عابرةً لمسافرة تطارد طيف حبيبها..

وأنا أحلق في فضاء معشوقتي نزلت؛ وكان لا بد من ذلك بعد أن رأيت مسجد الأمير عبد القادر.. كأول محطة للبحث عنك في هذه المدينة المبهرة لي كان لا بد أن أستشعر عظمة الخالق فيما خلق وصور، وأضع جبيني على سجاد المسجد الرمز وأتضرع لله بكل طاقة كي ألتقي بك ويجمعني بك..

في شوارع المدينة العريقة تبتسم لك الأماكن والأرواح، وتشدك بعطور غريبة كأنها تتوهني عن عطرك لأمكث هنا عاشقةً لهذه التي تبهرني بتفاصيلها العميقة عمق التاريخ الذي يتحدث عن نفسه..

في رحلة جمعت البحث عنك واكتشاف المدينة أدهشتني تلك التفاصيل العميقة في تضاريس جمعت بين القسوة والحسن؛ كأنثى ريفية تجمع بين فتنة الجمال والشدة التي تفرضها الطبيعة..

ومن بين ما أبهرني جسور الوصل بين جزئيات المدينة المتعالية الرافضة

الرضوخ لسطحية مدن أخرى.. جسر باب القنطرة، جسر سيدي راشد[1]، جسر الشيطان، جسر سيدي مسيد[2]، جسر ملاح سليمان، جسر مجازن الغنم، جسر الشلالات، جسر قسنطينة العملاق..

جسور توحي لك بنكهة اللقاء في الضفة الأخرى وبنكهة المشي عبره مع الآخر، ونكهة إلقاء نظرة ساحرة من أعلاه إلى تلك المساحات المرسومة على لوحات من الجمال الرباني التي تحيلك إلى حالة من الذهول..

رغم عتق المدينة وتآكل بعض منها لما مر بها عبر السنوات الطويلة إلا أنها تسحرك كأنثى تكبر سنًّا ولا تكبر روحًا، وتبقى بكامل إغرائها وبهجتها ... أيمكن أن أجدك في الضفة الأخرى؟ أي جسر سأمر عليه كي ترتسم لي عيناك في عتبة الوصول؟ حتى وإن غيرت تفاصيلك الخارجية وتسريحة شعرك يمكنني أن أعرفك!

كانت الأيام الأخيرة من عام ٢٠١٥.. عام وُسِم بعنوان عريض: قسنطينة عاصمة الثقافة العربية.. إن هذه التظاهرة لا بد أن تقدم لي شيئًا يدلني عليك، وهذه المدينة التي أحببتها من أول نظرة لا بد أن تتضامن معي لأجل أن ألتقيك..

في جملة الانتقالات هنا وهناك توقفت عند معرض للفن التشكيلي، وبين تلك الألوان والأطياف المختلفة للجمال والرؤى الفنية وقفت أمام لوحة بدهشة غريبة، وقد شممت عطرك لأول مرة قربها، فعرفت أنك مررت من هنا، فقلت إنه لا بد لي أن أبحث عنك هنا..

١- أعلى وأضخم جسر حجري فى العالم. قام بتصميمه المهندس الفرنسي أوبين إيرو.

٢- أعلى جسور المدينة، والأعلى في أفريقيا. صممه المهندس فرديناند أرنودان عام ١٩١٢.

وفي الجوار القريب! تقاطعت أقداري مع أقدار شخص لفت انتباهي بين من مررت بجوارهم دون جاذبية. كان يحمل أوراقًا اختطفني فيها اسمك لأشعر بالانتصار لحظتها، فتعلقت بأثوابه..

عندما وصل إلى بيته ورمى أوراقه متعبًا على مكتبه وانسحب خارجًا كنت في مشهد آخر من الذهول.. لوحة في بداياتها المتقدمة نحو انتهاء لا أعرف يقينًا مقدار الزمن الفاصل بينه وبين هذه اللحظة كوني لا أعرف تفاصيلَ عن صاحبها، لكن ما أذكره جيدًا أني كنت ضائعةً بين جزئياتها وألوانها الموجوعة..

ورغم عدم اكتمال الصورة كما أحسست بذلك كنت أقرأ فيها شيئًا منك.. رسمها كمن يحكي وجع الآخر مع افتقاد حلقات مهمة من سلسلة وجعه، فتبقى الصورة تعاني من يُتْم الاكتمال..

شيء ما يحاكي وجعك في ذروته رغم أنه يبدو لي – من وحي اللمسات العنيفة وجعًا – أكثر فداحةً!هل هو أنت بطلها بمزيد من الجراح، أم صاحب اللوحة فاقك وجعًا؟

بحثت بين أغراضه عنك، وعن شيء له دلالات توصلني إليك، وبعد برهة وقعت عيني على الآتي مكتوبًا بخطك أنت: «إلى الإنسان.. إلى الرمز.. إلى الروح المتدفقة إصرارًا رغم كل الوجع، ورغم كل الانتكاسات.. إلى الفنان بحسه ولمساته المبدعة.. إلى الكاتب بحبر الذاكرة المتخمة بالألم.. إلى الإعلامي المتألق «وحيد فريد» مع تمنياتي ألا يجعل في حياتك إلا الفرح والانتصار.. تقبل باقةً مما كتبت.. صديقك نزار.. قسنطينة في: ٢٠١٥/١٢/٠٩».

لا بد أن أعرف ما حدث في لقائكما، ومدى التشابه بينكما، وسر هذا الاحتفاء به كصديق مقرب، وأنا لا أعلم لك صديقًا مقربًا خارج القائمة التي أعرفها..

بجوار الإهداء وتلك النصوص المرافقة؛ كان الريح المتطفل عبر مسامات الشباك يبعثر نظام الأوراق المتراصة على مكتبه ليكشف صورتك على صفحة جريدة ...

كنت أعتقد أن الريح يزعجني وأنا أبحث عنك.. هو كان يبحث معي أو يدلني عليك.. كان يقدم لي صنيعًا وخيط العثور عليك.. رحت أقرأ المقال بنهم.. لكن كل ما قِيل عنك أو ما قلته في تلك الحوارية الطويلة أعرفه جيدًا ما عدا المبتدئ بعد رحيلك عني..

كلمة القاهرة شدني رسمها في العمود الثالث في منتصفه! أسرعت بالمرور على كل ما قِيل كي أعرف حكايتك مع القاهرة. كم أذهلني أنك تسكن هناك بعيدًا عني آلاف الكيلومترات.. ومنذ متى؟ منذ أزيد من خمس سنوات بأكملها! يا للصدمة!

×××

بعد أسابيع من شلل الفكرة وألم المسافة العميقة التي صارت موجعةً في خارطة لا أعرف كيف أبدأها، ولا كيف سأصل عبر إحداثياتها إليك في قاهرة المعز لدين الله الفاطمي!

قررت ابتداءً أن أعود إلى غرفتك وأتعطر بعطرك، وأستجمع قواي العاطفية كلها في استحضار ما بيننا.. ربما تصلك مشاعري فتنعكس على مرايا ذاكرتك وتعود إلي ببشارة المكان..

كنت أستلقي على سريرك، وأمارس بعض طقوسك في استحضاري، وأرسل عبر آلاف الكيلومترات رسائل الشوق والحب.. عندما فشلت في أول محاولة بكيت بوجع، ثم رحت أشغل الراديو كسرًا لذاك الغياب الحاضر في اللحظة..

بعد فاصل موسيقي سمعت مقدمةً لبرنامج (المقهى الأدبي)، وكان «الدكتور محمد الصديق باغورة»[1] معده ومقدمه، ومرافقًا له الروائي «محمد رفيق طيبي»[2].. عندما قُدِّم اسمك اتقدت مشاعري فرحًا، وقمت لأعدل من جلستي وأنتبه جيدًا..

صديق: نزار؛ أولًا: لماذا القاهرة بالذات؟

نعم حبيبي؛ لماذا القاهرة بالذات؟ لماذا تسافر دوني، وتسكن هناك بعيدًا عني؟ يا للصدمة! لقد كنت هنا! نعم؛ إن البرنامج مُسَجل في إذاعة برج بوعريريج!

كيف كنت تائهةً في البلاد وأنت هنا؟! كيف لم أنتبه أن رائحتك آخر مرة كانت أقوى من أي يوم عاودت فيه الرجوع إلى غرفتك؟ البرنامج بُثَّ في الواحد والعشرين من أكتوبر ٢٠١٥، وأكتوبر ليس ببعيد.. ها هي الرعشة تقتلني.. لقد كنت هنا! نعم.. يا لوجعي.. فقدتك مرتين!

رحت أتحدى دموعي ونواحي بالتركيز في الحلقة المُذَاعة كي أعرف بعض تفاصيلك.. ورحت تجيب سائلك عن مصر والحضارة الفرعونية

١- أكاديمي ومحاضر بجامعة مسيلة، أديب وشاعر. اختصرت اسمه في الحوار باسم «صديق».

٢- روائي شاب وشاعر حاز على جائزة «علي معاشي» للرواية العام ٢٠١٥ عن رواية «الموت في زمن هش». اختصرت اسمه في الحوار باسم «رفيق» وهو اسم شهرته.

وجاذبيتها، وعن جامعة عين شمس والدراسات الحقوقية كإضافة لشغفك بمصر..

ثم تحدثت عن نوفمبر ٢٠١٠ الذي حمل معطيات جديدة، ودافعًا آخر للسفر إلى القاهرة. وتحدثت عن بداياتك الأدبية التي أعلمها جيدًا، وعن الانتقالات من الشعر إلى النثر، وعن تلك الارتباكات التي أوجعتك وزادت حاجتك للكتابة. تحدثت عن (الغروب الأخير) الذي ابتدأت به جلستنا الحوارية اليوم، وذاك الرأي الذي وجهك إلى الرواية بسبب نفسك العميق الطويل الذي يليق بنص أكبر حجمًا واتساعًا من القصة بكل أشكالها..

صعقني أنك بدأت كتابة رواية جديدة ابتداءً من نوفمبر ٢٠١٠! كيف تجرأ على إلغائي من نصك؟ كيف تكمل المشاهد دوني؟

راح الدكتور يطلب منك نصًّا لتقرأه فقرأت وسمعت، وأقرأ لك الآن عنك:

«وجع بغيض؛ وصل إلى كل خلية في روحي وجسدي.. سأحاربك – يا وجع – بالبوح هنا والبوح هناك في خلوتي بين الأوراق.. سأفضح مخططاتك وعملاءك وأكتب، وأكتب، وأكتب..

أيها الوجع الذي يسخر من حالات الصفو داخلي ويربك الأنفاس والكلمات؛ أعلنتها حربًا ضدك منذ بدأت الكتابة إلى آخر نفس في حياتي..

وأيتها الذاكرة البغيضة ليتك تنتهين فجأةً فلا أذكر شيئًا.. لا فرق إن لم أجد اتجاهاتي.. فأنا تائه منذ الصرخة الأولى ومنذ النبضة الأولى ومنذ الحب الأول ومنذ الكراهية الأولى ومنذ اللمسة الأولى للبوح ومنذ الغربة الأولى..

تكفيني بعض أنفاس حمقاء تتبعها أحلام بألوان طيف تتعرض لكثير من الكسوف والخسوف حتى تتعثر خطاي بكومة من الدوار.. آه يا وجعًا يمتد الآن حد الصراخ.. وأي صراخ؟! رغم قوته المدمرة لا يسمعني أحد هنا.. لأن الصراخ الذي بداخلي يمتد لسنوات بعيدة! في مدى لا مسموع! في فصول لا مرئية! يا وجعًا يشبه الموت! سأحاربك حتى الموت!».

استفهامات طرحها نصك – وأنا أسمعه منك – حول أبعاد وجعك الممتد إلى كلك؛ والذي انعكس في ارتعاش قلق. رغم ذلك قدم لي وجعك دافعًا إضافيًّا للسفر إليك لتكون حربنا واحدةً ضد ما يوجعك..

استفهامات أخرى طرحها محدثك حول: الصرخة الأولى.. النبضة الأولى.. الحب الأول.. الكراهية الأولى.. اللمسة الأولى للبوح.. الغربة الأولى.. تركيبة من المشاعر عايشتها معك بتفاصيلها العميقة وكتبناها معًا.. لكن ما يبهجني في موجة حزنك تحديك بقولك: يا وجعًا يشبه الموت! سأحاربك حتى الموت! ما زلت قويًّا رغم انكساراتك المتوالية..

أواصل الانتباه إلى محاوراتكم..

صديق: النص مكون من ثلاثية: الوجع – البوح – الكتابة..

رفيق: هي ثلاثية تدفع إلى أسئلة متعلقة بالإنسان والغربة والذات الموجوعة.. هل للوجع ارتباط بالغياب عن الوطن؟ وهل الكتابة عنه تفضي إلى التخلص منه؟

نزار: الوجع لا ارتباط له بغربة المكان بل بغربة الروح.. أما مقدماته فكانت رفقتي هنا في الجزائر..

رفيق: أنت قلت أن الوجع سابق، فهل هو سبب للبحث عن مساحة

أفضل للبوح خارج الحدود؟

نزار: الخروج كان قدريًّا لا علاقة له بهدف البوح..

صديق: لاحظت أن هناك علاقةً بين البدايات والألم كعلاقة أنتولوجية (وجودية).. أو علاقة وجود كينوني؛ إن صحت الترجمة..

رفيق: إثبات وجود..

صديق: سمعت في هذا النص علاقة البدايات والوجع.. هل قدر البداية أن تكون مؤلمةً موجعةً كلحظة الولادة؟ وماذا يحس به النص في هذه الثنائية؟

نزار: ليس بالضرورة أن تكون البداية وجعًا كوجع الولادة.. لكن الوجع أكبر دافع للكتابة.. كثيرًا ما نقرأ، وكثيرًا ما نكتب عن الوجع في بداياتنا أكثر من مشاعر أخرى.. الوجع يمنحنا قوةً ودافعًا للكتابة..

صديق: الصرخة الأولى، النبضة الأولى، الحب الأول، الكراهية الأولى، اللمسة الأولى للبوح، الغربة الأولى.. هل النص مرتبط ببداياتك؟

نزار: هو ملخص للبدايات.. هو تأريخ للماضي والبداية.. البداية مع الحب والكتابة والعالم الآخر..

صديق: رفيق؛ ألا توافقني فيما أحس به؛ وهو أن المسافة بين هذا النص والشعر قليلة جدًّا؟!

رفيق: النص هو أقرب إلى القصة.. أظن أنه بداية لنص أطول.. هو موجز، والمساحة ستتسع فيما بعد..

صديق: وأيضًا؛ طبيعة الموضوع؛ وهو داخلي وجداني؛ فيه يناجي داخله وذاته وألمه وحالته، وهذا الموقف في حد ذاته قد يكون شعريًّا أكثر

منه قصصيًّا..

رفيق: الكاتب والصديق قدم شيئًا موجزًا لنصوص قادمة، وكتابات يعدنا بها إن شاء الله..

صديق: حدثنا عن حيثيات النص، والأجواء الأولى لميلاده..

نزار: النص أتى صدفةً.. عندما ينبض القلب أول مرة يجد صاحبه نفسه محتاجًا لمصارحة نفسه والكون حوله بأن قلبه ينبض بطريقة جديدة.. الحب هو دافع من دوافع الكتابة.. ودافع قوي جدًّا للكتابة..

صديق: لنسمع نصًّا ثانيًا..

نزار: شوق أنثى[1] ...

انتظر لحظةً! من منحك النص وهو نص منثور منطوق لا مكتوب مثلته أنا على خشبة مسرح (باشطارزي).. كيف وصل إليك بحرفه كله؟ أروحك مرتبطة بي حتى تقرأني بهذه الطريقة؟ تصيبني في كل مرة بمزيد من الدهشة!

رفيق: بلهجتنا أقول: (يعطيك الصحة)![2] مفتاح النص كلمة (عد)؛ إذ أن لها أبعادًا عاطفيةً رومنسيةً وقد تكون تراجيديةً.. أسئلة البوح والشوق والفقدان خدمت النص بشكل جميل.. وأعتقد أنه بوح!

صديق: كلمة (عد) جاءت في شكل لازمة تعود في كل مرة، والنص الثاني يثبت مقاومة القصيدة؛ فلا تسمح للقصة بالظهور، ولذا يبدو لي ما

١- النص التمثيلي مذكور كاملًا في المشهد الثاني من الجزء الرابع في هذا الفصل، والنص وبدايته: «عد! يا من رحلت في قمة حاجتي إليك؛ التفت وراءك.. انظر إلي.. اسمع وجعي ونداءاتي.. عد! ... ».

٢- عبارة شكر مع إعجاب في هذا الموقف، مع أن التعبير عن الإعجاب هو الراجح..

سمعناه في النصين أن الكتابة معك تستعصي على التصنيف، لأننا عندما نبحث عن الشعر نجده وعندما نبحث عن النثر نجده: نجد الشعر في هذه التكرارات واللازمات والتناسق والسلاسة لغةً وأصواتًا، ونجد النثر والقصة في الولوج في الجوانب النفسية داخل الشخصية، لذا يمكن أن أقول أن النص معك جمع بين الحسنيين..

رفيق: سبق للضيف أن صرح أن قيود التفعيلة والقافية والوزن قادت إلى البحث عن نص منفتح..

صديق: نص يفرض أسئلةً، ويفرض حيرةً..

رفيق: هو نص يرفض القيود ليكون نصًّا مفتوحًا؛ يمكن إدراجه في أدب البوح والاعتراف..

صديق: هل تتذكر الحالات التي قادت إلى النص..

نزار: هذا النص مرتبط بحياتي الأسرية في القاهرة، حيث إني طرحت فكرة السفر إلى الجزائر بمفردي، ولارتباط الزوجة العاطفي بي بشكل يرفض السفر بشكل منفرد قرأت من صوتها ومن مشاعرها هذا النص، وكتبته إكرامًا لهذه المشاعر.. لكن كتبت بطريقة أخرى؛ وهي أني تقمصت شخصية الأنثى التي تفقد حبيبها – لا زوجتي التي تفتقدني وأنا عائد إليها، فأنا لست راحلًا رحيلًا أبديًّا – فعمقت في مشاعر الوجع، واستحضرت أنثى فقدت حبيبها.. أو على وشك أن تفقده أبدًا.. فكتبته بهذه الطريقة وكتبت هذا النص، وتقمصت تلك المشاعر وتلك الفوضى وذاك الحزن.. حتى أني لما كتبت هذا النص كنت أتنقل في غرفتي، وأمسك بأشيائي، وأتعلق بستائر شباك غرفتي، وأحاول أن أخرج تلك المشاعر كلها

بين أسطر هذا النص لتليق بمشاعر أنثاي الحقيقية..

صديق: قد قرأت نصًّا ثالثًا وأنت تصف النص الثاني.. هه.. فيه كثير من التفاصيل الدقيقة التي لا يصل إليها إلا تصور راق، وتصور ناضج مبني على معرفة وثقافة.. هكذا هي دائمًا محاورة الأديب!

رفيق: سعيد بالاستماع لنص نادرًا ما نجد نوعه؛ فيه محاكاة للواقع، ومحاكاة للذات، إضافةً إلى حديث وجداني يرتبط بواقعية وبحياة شخصية.. أنا أحيي ضيفنا على هذه الإضافة وعلى هذا الدفع بالمشاعر إلى أقصى حالاتها الحميمية.. الذي أدهشني هو وجود هذه الكتابة في ظل المشاعر التي ...

صديق: قد تبدو مشاعر عاديةً جدًّا ومشاعر اجتماعيةً، لكن الشاعر لم يعبر عن مشاعر عادية، بل استمر مع التعامل مع الكتابة وحتى مع الزوجة واستمر في التعامل على أساس أنه عاشق وليس مجرد زوج..

رفيق: الجزائري عمومًا لا يبوح، ويبدو جافًّا ظاهرًا من باب البوح والكلام رغم أنه عاشق عميق في صمت..

صديق: الجزائري عندما يحبك يضربك بقوة.. بعنف..

رفيق: بحجم الحب تمامًا.. الجزائري لديه إشكالية في البوح، ونموذج الضيف مدهش بطريقة ما..

بعد ذلك انتقل الحديث عن تجربتك في عملك في دار نشر الكترونية.. كنت تائهةً شيئًا ما عن استيعاب الحوار.. كنت فقط أترصد نغمات صوتك وترددتها، لكني انتبهت لقولك عن حقيقة مفادها أن مستوى الكتابات الجزائرية راق، وللأسف هناك من يعتقد أن الكتابة المشرقية أقوى وأعمق

من الكتابات الجزائرية؛ التي أثبتت نفسها وتثبت نفسها. فقط تحتاج إلى ثقة عميقة داخل الوطن، وثقة عميقة بين أبنائها، فالكتابة الجزائرية تستحق الكثير.. نعم حبيبي؛ هي تستحق الكثير..

بعد ذلك انتقل الحديث عن الصدمات التي سألك عنها الدكتور محمد الصديق؛ تلك الصدمات التي نعايشها ويعايشها الأديب – خاصةً – بعمق وعن وجودها والتعبير عنها في نصوصك.. ورحت توضح أنك تحدثت في روايتك الأولى عن كم من هذه الصدمات، ورأيت ضرورة الكتابة عنها لإخراج آثارها الجانبية، لنتجاوزها وننظر إلى الغد بشكل أقوى.. ليضيف لك الدكتور محمد الصديق قوله الموافق لفكرتك واصفًا لها بما يشبه التطهير الذي تحدث عنه أرسطو..

قلت أيضًا أن الرواية تمنحك آفاقًا أوسع لتكتب بطريقتك التي تعودت عليها من انسيابية وسردية مسترسلة..

بعد فاصل موسيقي استمر الحوار عن لغتك في الكتابة وتعاملك معها وتحكمك فيها وتصرفك فيها، حيث إنك تضعها حيث تريد وحيث تريد فكرتك..

لا أدري ما حدث بعدها، فقد أخذتني حالة من الاستلاب مرةً أخرى في السؤال العميق: كيف كنت أنت هنا في هذا المكان ذاته، وتضع رأسك حيث أضع رأسي على هذه الوسادة التي ادخرت من أنفاسك وعطرك لتشهد لي أنك كنت هنا؟!

اختُتمت الحلقة بأغنية عبثت بما تبقى من توازني، فبكيت بكل الشوق لك، وبكل الاحتياج إلى احتوائك.. كانت الرائعة ماجدة الرومي تغني وتقول:

شو بحب أسهر[1] أكون قنديلك..
تغفى بعيني.. وأغنيلك..
وآخر طريق الليل.. تغمرني..
ع دروب أحلامي.. تسفرني..
بحر وضباب.. و؛ حدك أنا..
أيا قمر هل! أيا سنة!
هيدا حلم! هيدا هنا!
بحب الحلم لما تاخذ بإيدي هيك، وتضمها..
حبيبي! أكثر من حبيبي عمري كلو..
شمسي القريبة..
تشرق علي وحدي بها الكون..
تغزل عيني بألف لون ولون..

كانت الأغنية تحرك كل تفصيل للقاءاتنا وتأخذني بامتداد الليل إليك، ومع أول مداعبة للشمس قلت لك: سآتيك خيط نور مع إشراقة الصباح.. سآتيك أمنيةً بعد كل رحيل للشمس.. سآتيك نجمًا أينما تولي وجهك وأنت تتصفح كتاب السماء ليلًا من شرفة غرفتك.. سآتيك نوتات موسيقية على أوتار عود همسي.. وأرحل بعد كل مرة لأجمع شتاتي المبعثر لأليق بك في كل مرة..

مسحت مخلفات دمع حارق وتنفست بعمق الذاكرة وعمق الحلم واللهفة في لقائك، ثم اغتسلت بشوقي وانطلقت إليك عبر المدى البعيد المرهق.. كانت مسافات مذهلةً، لكن هدفي صار أكثر وضوحًا وتجليًا: أنت..

١- شو بحب أسهر: أغنية لـ: إيلي بيطار، ألحان: جمال سلامة، غناء: ماجدة الرومي.

– ٦ –

بعد آخر بوح لك في «انتكاسات ذاكرة».. ما يقارب ست سنوات من الغربة عني.. ست سنوات من البعد والبحث عنك.. نوفمبر ٢٠١٠.. نوفمبر ٢٠١٥ والآن تجلى يونيو في ليلته الأولى! لا أصدق أني معك الآن! لا أصدق أني وجدتك بعد هذه الاغترابات! أقدري أن أتجرع معك مرارة ما تعيشه بدل أن أكون من يخفف عنك؟ انظر إلي..

رفع بصره إلي.. ما أروعه حتى في لحظات حزنه! لا يمكن أن ينعدم في عينيه دفء حبه لي! منحته نسخة روايته وطلبت منه توقيعها بتاريخ لقائنا: ٢٠١٦/٠٦/٠١.

– لك هذا حبيبتي، لكن أين هو الراوي؟

– أتيت دونه؟

– ما أخباره؟ ما أخره عني؟

– ...

– ما الذي حدث؟

– أخبار الراوي ستقرأها في آخر الرواية!

كان يتفحص الرواية على عجل، ويتوقف عند جمل لم يصنعها هو ليقرأها بشيء من التعمق في وجعه المرتسم أمامه بكل مشاهده، ثم يصل بعد زمن قريب إلى نهاية الرواية!

– آه!

– ...

– لم أتوقع أنه سيتطرف على النص وعلى مسار الحكاية؛ ويحبك!

ثم يواجه واقع الحكاية بهذه النهاية!

– لا عليك! المهم أني أتيت لك ببعض حكايتك.. ولا بد أن تكمل ما يليها.. احكِ لي حكايتك في زمن ما بعد «انتكاسات»..

×××

الفصل الثاني

- ١ -

حبيبتي؛ ستجمعنا أمسيات متخمة بالذاكرة أحكي لك ما حدث بعد افتراقنا، فهناك ما كتبت بعضه وهناك الذي ما زال ساكنًا الذاكرة يحتاج اكتشافًا وانتقاءً، ولا أظن بعد هذه السنوات أنه هناك من هو أجدر بك..

×××

كانت شهادةً لي تسعدني وتثبت مكانتي في ذاكرته.. ابتسمت وتركت له الفرصة ليكمل..

×××

عندما تضعف إرادة الواحد منا تُلَقح بويضة المستحيل في رحم الحلم، فإن لم يتم تداركها بالإجهاض الإرادي وُلِد هذا المستحيل ولادةً قيصريةً، ومات الحلم، وجلس المولود في باحة المكان ليعفن الآتي بقدر ما يعمر في أذهاننا! رغم كل الخيبات والوجع تحديت المستحيل، وبقيت – بالقوة الأولى – أحلم.

بعد أيام من فراقنا لم أقرب الكتابة خوفًا؛ وكأنها مفخخة كل اللحظات التي من الممكن أن ألامس فيها أي ورقة بأي نوبة بوح.. لكن قدري أن أكتب، ولا بد من المخاطرة..

لما رفعت القلم وارتعشت الروح لهفةً للبوح داهم اللحظات ظل مقيت، وجلس في وسط المكان، وراح يقول: هل الحلم طاقة فيك؟ أم أنك تهرب به من واقعك؟ تجاهلته! فأنا لم تكن تهمني هذه الإشكالات حينها! ففي كل الأحوال كانت اللحظات تثبت أني ما زلت بخير؛ وما زال بمقدوري أن أحلم

بكل الطاقة الأولى. بل؛ وأكثر!

ما زلت أصنع طقوسي في الحلم، وما زلت أكتبها شعرًا ونثرًا، وما زال بإمكاني التعلق بالقمر، وما زال في داخلي ذاك الطفل الذي يهرب في عتمة الليل ليعانق نسائم البحر وحالات العشق، وما زالت أنفاسي تمكنني من الطيران حالمًا وعاشقًا.

خلاصة: ما أجمل أن تحلم! وما أروع الحكايات بطعم الحلم!

اليوم الموالي كان الاثنين، الفاتح من نوفمبر، صباحًا: كانت أشعة الصبح تعانقني وأنا أمشي الكيلومترات الرابطة بين بيتي ومكان عملي بلمسات غريبة تمنحني رغبةً في التأمل والتنفس بعمق، وتنعش الكثير من روحي. توقفت وسألتها: «أهي تلميحاتك أو مداعبة ودودة أو حالة إشفاق؟»..

اختبأت الشمس وراء سحابة مناورةً ومباغتةً لي بعناق جديد. اعترضت عليها بحركة لطيفة وقلت لها: «لن أسألك!». زاد وهجها في هذه اللحظة وابتسمتُ أنا لي ولها وأكملت المسير..

دخلت المقهى القريب، واخترت مكانًا في الزاوية، وطلبت كوب لبن أبيض وقطعة كعك وزجاجة عصير برتقال. أفطرت على مهل أراقب هذه التغيرات الطارئة في داخلي وهذا الهدوء الغريب الذي يحيط بأرضي، وتلك الشمس الحاضرة في مدينتي؛ تلك التي كانت تداعب وجهي وجسدي على مسار دام أزيد من نصف ساعة مشيًا..

تلك التأملات كلها تمنيت أن أكتبها حينها لكني لم أكن أبالي بالكتابة ذاك الصباح. كنت أصنع فواصل بين تلك التأملات للنظر إلى شاشة التلفزيون وأخبار العالم الصباحية السياسية والاقتصادية والرياضية.

الغريب أني لم أكن منتبهًا لما كان يُقَال بسبب الحوارات الذاتية، وأخبار السياسة الداخلية الجديدة، ونقطة البدء التي اخترتها منذ هذا الصباح.

قمت بعد أن تناولت العصير لأدفع قيمة ما تناولته وأغادر بهدوء. بثقة رحت أفتح باب المحل، وأدخل المكان، فأعطره، ثم أشغل جهازي، ثم أطمئن على باقي الأجهزة لدي. نظرت إلى المكان إن كانت هناك أشياء ليست في مكانها المقرر، وعدت إلى مكاني لأجلس وأفتح صفحة (وورد) وأكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. أنزل سطرًا وأكتب: بداية يوم جديد.

كان يومًا حافلًا بالعمل والنشاط، وعلى مقربة من انتهائه بثلاث ساعات أتاني شاب بوحدة مركزية تحتاج إلى تثبيت نسخة (ويندوز إكس بي) وما يلزمها من تعريفات، وجملةً من البرامج. فاقترحت عليه أن يعود آخر دوامي قبل المغرب بلحظات، أو أن يتركها إلى الغد إن أراد عملًا أكثر تكاملًا وفحصًا شاملًا للجهاز، وتجريبًا لمستوى أدائه بعد عمل اللازم؛ فوافق، ثم وافق على المبلغ المطلوب لعمل ما يجب عمله بعد تفصيل ما أريد فعله.

لما خرج بدأت بتنظيف الجهاز تنظيفًا شاملًا، ثم جددت المعجون الحراري للمعالج، وتأكدت من كل التوصيلات كي أضمن عملًا في ظروف أفضل، وبدأت العمل فعلًا.

عندما انتهيت من تثبيت النسخة والتعريفات والأوفيس والبرامج كلها كانت لحظات نهاية الدوام اليومي قريبةً جدًّا. التقت رغبتي في تجريب أداء الجهاز برغبة في ليلة عزلة عن العالم؛ فوجدت الحل في المبيت في محل عملي.

كان لي فراش يشبه ما يفترشه المشردون في الشوارع لكنه كان قطعةً نظيفةً وسميكةً أتيت بها من غرفتي مع غطاء يخفف عني وطأة البرد. جلبت وجبةً للعشاء وأغلقت المحل من الداخل وأعددت فراشي ورتبته احتياطًا لأي مداهمة للنوم.

تناولت أكلي وأنا أتفحص البرامج كلها وأتأكد من عمل الجهاز بكفاءة، إضافةً إلى جهازي الشخصي الذي أتصفح منه بعض الأخبار، وأنتظر صديقًا لي على (السكايب) أتبادل معه نكتًا قديمةً نجدد فيها، أو نتبادل نكتًا لا نعرفها، أو نتبادل معارف جديدةً تخص مجال المعلوماتية. كونه مهندسًا معماريًّا وكوني حقوقيًّا لم نكن نتكلم كثيرًا فيما يخص مجالي تخصصنا، غير أن المعلوماتية جمعتنا وجمعت أكثر اهتماماتنا.

كانت الساعة التاسعة ليلة الفاتح من نوفمبر عندما قررت غلق جهاز العميل بعد الاطمئنان على أداء جميع البرامج وتحديث مضاد الفيروسات، وعمل فحص شامل للجهاز. وتركت تركيزي الكامل على جهازي الشخصي ليفاجئني اتصال (سكايب) من حساب جديد..

أجبت على المكالمة بكثير من الفضول وأنا أتفحص بيانات الحساب: جنا؛ من مصر!

×××

- ٢ -

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- هل أنت جزائري؟

- نعم؛ جزائري وأفتخر، جزائري الهوية والمصير.. وحسب لهجتك وبيانات حسابك لا بد أنك مصرية!

- نعم؛ أنا مصرية.

- أهلًا بك وبأهلنا في مصر الطيبة.

- شكرًا لك.

- العفو. أنا نزار، وأبلغ من العمر تسعًا وعشرين سنةً. وأنت؟

- جنا. أقل من عمرك بسبع.

- بارك الله فيك وفي عمرك.

- شكرًا لك. سعيدة بأسلوبك الحواري معي!

- ما الغريب في ذلك؟

- لأول مرة أحاور فيها جزائريًّا. وقادني إليك الفضول بعد كثير من اللبس وكثير من المد والجزر في أهل الجزائر. وقِيل لي أن أي تواصل مع أي جزائري ستحصدين من ورائه خيبةً وندمًا.

– كذب من قال هذا على مطلقه. ثم إن الخير والشر في كل بقاع الأرض.

– سمعت الكثير عنكم ولم أكن أستوعب كل ما يُقَال.

– لأن فطرتك ترفض أن يُقَال كل ما سمعته عن شعب مسلم عربي له تاريخ مشرق ينصفه وإن لم ينصفه أشباه البشر.

– أود أن أعرف الكثير.

– أنت تتحدثين متأثرةً بما حدث من فتنة بين شعبينا بسبب الكرة، وما صنعه الإعلام في الضفتين من تشويش وتشويه لعلاقات عميقة بين شعبين أكبر بكثير من لعبة كرة.

– شوقتني لمزيد من الحديث معك.

– يسعدني ذلك ويشرفني. ولنبدأ منذ البدء الأول؛ وقال فيه نبينا محمد (ﷺ): «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد؛ كلكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ... ألا هل بلغت؛ اللهم فاشهد». وقال الصحابي ورابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في شعره:

كن ابن من شئت واكتسب أدبًا ... يغنيك محموده عن النسبِ
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبِيَ

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي:

لا يقولن امرؤ أصلي فما أصله ... مسك وأصل الناس من طينِ

جنا ... يتصور الكثير أن أقباط مصر هم نصاراها غير أن هذا من الخطأ الذي شاع حد صيرورته ثابتًا كحقيقة في أذهان غالبية المصريين والعالم. غير أن قبط – وهي مفرد أقباط – ترتبط باسم قبط أو قفط بن حام بن نوح الذي كان أول ساكني مصر، فنُسِب أهل مصر إلى أبيهم قبط فسُمُّو أقباطًا قبل ظهور المسيحية بقرون.

وهناك إلى الآن قرية في صعيد مصر تُسَمى قرية قفط، ومنها المؤرخ الشهير «الإمام القفطي» صاحب كتاب «تاريخ الحكماء». بعد دخول الإسلام إلى مصر أسلم بعضهم والبعض الآخر بقي على نصرانيته، فصاروا مسلمين ونصارى وجميعهم استعرب..

وبقيت تسمية الأقباط مرتبطةً بالنصارى.

من أبناء حام بن نوح ولد آخر استقر – غالبًا – في ليبيا، وليبيا كانت تُطْلَق على عموم أرض المغرب العربي الكبير، وكان منه نسل الأمازيغ.

قِيل إننا من ولد كنعان بن حام بن نوح، وقِيل إننا من ولد مازيغ بن كسلوحيم بن مصرايم بن حام. ولنا في التاريخ جذور متأصلة منذ الأوائل، وأمازيغيتنا ما زالت صامدةً في وجه الأعاصير والاجتياحات والفتوحات القرون الطويلة.

نحن وأنتم أبناء حام ولسنا عربًا بالجملة، ولنا جذور قوية منذ بداية التاريخ بعد الطوفان لا تقل أصالةً وعمقًا عنكم.

«الأمازيغي» أو الإيمازيغن: قِيل فيها أنها مفرد كلمة «أمازيغ» التي تعني الرجل الحر أو النبيل في لغة الطوارق الأمازيغية القديمة، وقِيل أنها منسوبة إلى «مازيس» أو «Mazices».

أما البربر فهو اسم عربي قديم ليس خاصًّا بسكان شمال إفريقيا وحدهم؛ بل كان يُطْلق أيضًا على جماعات في العراق وشرق إفريقيا، ولا علاقة له – مطلقًا– بكلمة (varvaras) اليونانية ولا كلمة (Barbarus) اللاتينية.

وكلمة البربر ذات الطابع البدوي الصحراوي اكتسبت قيمتها التاريخية في شمال إفريقيا منذ مجيء العرب المسلمين بعيدًا تمامًا عن معاني الانتقاص الموجودة في اللغتين اليونانية واللاتينية.

فُتِحت بلاد المغرب على أيادي المصريين، وفُتِحت إسبانيا وبُنِيت حاضرة الأندلس بأياد مغاربية جزائرية تحت قيادة طارق بن زياد ... ولنا أمجاد لا تقل عن بقية الأقوام العربية والمسلمة في الريادة والذود عن الإسلام وكلمة التوحيد ...

كانت الجزائر خلال العهد العثماني من أقوى دول حوض البحر الأبيض المتوسط، متمتعةً باستقلال كامل مكنها من ربط علاقات سياسية وتجارية مع أغلب دول العالم، بل وهي أول دولة اعترفت بالثورة الأمريكية بعد استقلالها عن التاج البريطاني عام 1776م، وبحكومة الثورة الفرنسية عام 1789.

كان الاسم الحقيقي للدولة الجزائرية هو «إيالة الجزائر» وأحيانًا اسم «جمهورية الجزائر» أو «مملكة الجزائر»، وأبرمت عشرات المعاهدات مع دول العالم باسمها الخاص.

كما بلغ أسطولها البحري قوةً عظيمةً بحيث استطاع خلال القرن الثامن عشر إحداث نظام للملاحة في المتوسط يضمن أمن الدولة

الجزائرية خاصةً والدولة العثمانية عامةً، وبصورة أعم التجارة الدولية في هذا البحر، وهو ما جعل الدول الأوربية تعمل على إنهاء هذا النظام تحت غطاء إنهاء ما كان يُسَمى بـ (القرصنة) التي كانت تمارسها جموع المغامرين الأوربيين بموافقة دولهم ومؤازرتها لهم. في حين أن ذلك كان أسلوبًا دفاعيًّا لمواجهة المد الاستعماري الذي انطلق منذ القرن الخامس عشر؛ والذي دخلت الجزائر بمحض اختيارها من أجله ضمن (الخلافة العثمانية) وتحت حمايتها.

لقد بادرت فرنسا في (مؤتمر فيينا) (1814/1815م) بطرح موضوع (أيالة الجزائر) فاتفق المؤتمرون على تحطيم هذه الدولة في مؤتمر (إكس لا شابيل) عام 1819م، حيث وافقت 30 دولة أوربية على فكرة القضاء على (دولة الجزائر).

وأُسنِدت المهمة إلى فرنسا وانجلترا، وتوفرت الظروف المناسبة للغزو عندما تمكنت بحرية البلدين من تدمير الأسطول الجزائري في معركة (نافارين – Navarin) سنة 1827م، حيث كان في نجدة الأسطول العثماني، وبذلك انتهت السيطرة الجزائرية على البحر الأبيض المتوسط. لقد كانت حادثة المروحة الذريعة التي بررت بها فرنسا عملية غزو الجزائر.

نظرًا لعدم التزام فرنسا بدفع ديونها للخزينة الجزائرية – التي قُدِّمت لها على شكل قروض مالية ومواد غذائية بصفة خاصة خلال المجاعة التي اجتاحت فرنسا بعد ثورة 1789م، والتي قُدِّرت بـ 20 مليون فرنك ذهبي في ذلك الوقت – وبعد المشاحنة الكلامية في هذا الصدد أقدم

الداي الحسين على ضرب قنصل فرنسا بمروحته. الحادثة هذه اتخذها الملك الفرنسي شارل العاشر ذريعةً للغزو ثأرًا لشرف فرنسا وانتقامًا من الداي حسين.

وفي 25 مايو 1830م انطلقت الحملة الفرنسية تجاه الشواطئ الجزائرية من ميناء طولون (Toulon) ووصلت الحملة إلى شاطئ سيدي فرج يوم 13 يونيو 1830م وشرعت في عملية الإنزال مباشرةً في اليوم الموالي ...

وسقطت العاصمة يوم الخامس من يوليو 1830؛ لتبدأ مرحلة استعمارية من أقذر الخطط الاستعمارية في العالم الحديث في ظل مقاومات شعبية شجاعة كانت تضرب بقوة؛ لكنها كانت تسقط بتواطؤ سببين: المساحة الشاسعة للجزائر، وضعف التسليح أمام الكم الهائل من الأسلحة الفرنسية وخطط المحتل، وأمام سببية كبرى اسمها جهود فردية متفرقة، لتسقط الجزائر كليًّا تحت وطأة الاستعمار.

وتبدأ بعدها خطط جديدة وتوجهات جديدة للمقاومة تنطلق من العمل الحزبي والتربوي والتعليمي برزت فيها أسماء كثيرة تهتم بالحفاظ على التراث الإسلامي والثقافة الإسلامية، والدين واللغة كمقومين أساسيين للمجتمع الجزائري ...

في مرحلة حاسمة نقف أمام صدمة صفعت التوجه السلمي للمقاومة في احتفالات الثامن مايو 1945 إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفوز فرنسا والحلفاء واستقلالها من قبضة النازية الألمانية؛ التي دفعت بأرواح جزائرية ثمنًا لهذا الانتصار..

لقد تم قتل ما يزيد عن خمس وأربعين ألف جزائري؛ لا لشيء إلا أنهم طالبوا فرنسا أن تصدقهم وعدها بالرحيل ...

بعد هذه الواقعة انطلق العمل الجاد على أساس أن ما سُلِب بالقوة لن يعود إلا بالقوة؛ لتندلع ثورة من أعظم الثورات التحررية بين الفاتح نوفمبر 1954 والخامس يوليو 1962 ...

إعلامي مصري يصرح على الهواء: «الجزائري لا يقبل أن يكون إلا شريفًا مستقلًا ... لأن الشعب الجزائري له حمية وكرامة يندر وجودها في الشعوب الإسلامية والعربية».

تلك الروح التي كسرت شوكة فرنسا وطردتها في سنوات ظنت أنها ملكت بوابة إفريقيا..

الخامس يونيو 1967 ... اتصل الرئيس عبد الناصر بالرئيس هواري بومدين[1] هاتفيًّا قائلًا:

– «لم يبقَ عندي طائرة واحدة سليمة، أرجو أن تُرسل لي بعض الطائرات».

فأجابه بومدين:

– «كل ما تملكه الجزائر سبع وأربعون (74) طائرةً حربيةً، أرسل طيارين مصريين لاستلامها لأن الطيارين الجزائريين في بداية تدريباتهم».

وفي الغد طلب السفير الأمريكي بالجزائر مُقابلة الرئيس بومدين

١- محمد إبراهيم بوخروبة (٣٢ أغسطس ٢٣٩١ – ٧٢ ديسمبر ٨٧٩١) الملقب بهواري بومدين، الرئيس الثاني للجمهورية الجزائرية (٩١ يونيو ٥٦٩١ – ٧٢ ديسمبر ٨٧٩١).

لتبليغه رسالةً من الرئيس الأمريكي فاستقبله بومدين، فقال السفير الأمريكي:

– «كلفني الرئيس الأمريكي أن أنقل إليكم بأن حكومته لا تنظر بعين الارتياح إلى إرسال الجزائر لطائرات حربية لعبد الناصر»، فأجابه بومدين:

– «أولًا؛ انتهى ذاك الزمن الذي كانت فيه أمريكا تأمر والبلدان الصغيرة تُطيع، ثانيا؛ انتهى وقت المقابلة» ...

أما اليوم فحكام العرب أشد بلاءً على شعوبهم من أمريكا!

تدهورت العلاقات الجزائرية المصرية على خلفية هزيمة يونيو 7691. قامت الجزائر على إثر ذلك بسحب لواء المشاة الجزائري الذي كانت قد أرسلته إلى مصر عند قيام الحرب.

وخلال زيارة رئيس الأركان المصري الفريق سعد الشاذلي إلى الجزائر في فبراير 2791 من أجل طلب الدعم العربي لمواجهة إسرائيل أخبره المسؤولون الجزائريون أنهم عندما سحبوا لواء المشاة فإنهم سحبوا أفراد اللواء ومعهم أسلحتهم الشخصية فقط، فيما تركوا جميع أسلحة اللواء الثقيلة في مصر، وإنهم لا يريدون هذه الأسلحة وإنما يريدون إخطارًا بتسلمها.

ولم يكن الشاذلي يعلم بذلك، فوعدهم بتسوية ذلك حال رجوعه إلى مصر، وبالفعل قُدِّمت وثيقة إلى الجزائر تثبت تسلم الأسلحة قابلها الجزائريون بالشكر.. ثم أرسلوا إلى مصر في ديسمبر من نفس العام 42 قطعة مدفعية ميدان.

حينما اندلعت الحرب في 6 أكتوبر 1973 أرسل هواري بومدين إلى الجبهة المصرية سرب طائرات سوخوي7 وسرب ميج17 وسرب ميج21 وصلت في أيام 9 و10 و11 أكتوبر. فيما وصل إلى مصر لواء جزائري مدرع في 17 أكتوبر1973.

وخلال زيارة الرئيس هواري بومدين إلى موسكو بالاتحاد السوفيتي في نوفمبر 1973 قدم مبلغ مئتي مليون دولار للسوفييت لحساب مصر وسورية بمعدل مئة مليون لكل بلد ثمنًا لأي قطعة ذخيرة أو سلاح يحتاج لها البلدان.

حرب أكتوبر 1973 المندلعة في السادس منه والمنتهية في اليوم الثامن عشر من يناير العام 1974 على الجبهة المصرية والممتدة حتى الواحد والثلاثين من مايو العام 1974 على الجبهة السورية... هذه الحرب ليست حرب مصر ضد إسرائيل بل هي حرب العرب ضد إسرائيل...

في هذا الشأن صرح اللواء جمال مظلوم قائلًا: «مشاركة الجيش الجزائري في حرب أكتوبر كانت حاسمةً في هزم إسرائيل». ويصف الجندي الجزائري بـ (الشجاع والمقدام)، وصرح أن القوة الجزائرية كانت في الخطوط الأمامية في مواجهة العدو الصهيوني وأنها غطت باقتدار الخطوط الخلفية للجيش المصري عقب نجاح قوات إسرائيلية في عبور قناة السويس ومحاصرة الجيش الثالث وهو ما عُرِف بـ (الثغرة).

لقد كان اهتمام المصريين كبيرًا بمشاركة القوات الجزائرية في الحرب لما هو معروف عن الجزائريين من براعة وشجاعة وخبرة سابقة

مستقاة من حرب التحرير الجزائرية ضد الجيش الفرنسي.

لكن؛ لأسباب في أنفس كتاب مصريين أظهروا ما يخالف الحقيقة، فكانت مصر العظيمة المقدامة دون سواها.. أما الكتابة التاريخية عن الحرب الموثقة لدى القوات المسلحة المصرية كان يُنْظَر إليها كنوع من الأسرار العسكرية التي يصعب الحديث أو النشر عنها ...

في الشأن الفلسطيني أقول لك أن الجزائر هي من أدخلت إلى أروقة الأمم المتحدة قضية فلسطين، وأرغمت العالم على سماع خطاب ياسر عرفات الشهير: «البندقية وغصن الزيتون» يوم 13 نوفمبر 1974، كما أُعْلِن استقلال دولة فلسطين يوم 15 نوفمبر 1988 في مدينة الجزائر.

رفع هواري بومدين شعارًا خالدًا «الجزائر مع فلسطين ظالمةً أو مظلومةً»، وتبنينا يقينًا عدوًّا أبديًّا هو الكيان الصهيوني. وبرامج صوت الانتفاضة كانت تُبَث على أمواج الإذاعة الجزائرية.

×××

- ٣ -

كانت تستمع إلي بانتباه، وتؤكد حضورها بكلمتي (نعم) و(أنا معك) كي أستمر في سرد ما وددت قوله دون أن أشعر أني أكلم نفسي.

كنت أحدثها بحماسة وسعادة لم أعرف سرها أبدًا حينها. عندما أنهيت ما أنهيت وجدت فيها سعادةً مشابهةً لسعادتي بهذا اللقاء وبهذه الجلسة الحوارية منحتني طاقةً في مزيد من الحوار؛ بل رغبةً صادقةً إضافةً إلى المقدرة، غير أن لسعات البرد كانت تلزمني أن أتصرف حيال ذلك بأن أستأذنها للحظات أقوم فيها بشيء ما؛ أخبرتها عنه بعد أن أعلمتها بعودتي بعد زمن فاصل بين الغياب والعودة عمره دقيقتان فقط.

أخبرتها أني أعددت فراشًا رتبته بعناية قرب مكتبي، ووضعت وسادتي ثم غطاءً رتبته بعناية أخرى كعادتي التي بدونها لا أرتاح في النوم أبدًا، ثم وضعت إلى جانبي (لوحة المفاتيح) و(الفأرة) وأطفأت النور الكهربائي، واستلقيت في فراشي كي أتدفأ، وتابعنا حوارنا:

– حدثني عن نفسك.

– إنسان جمع بين بساطة ظاهره وتركيبة معقدة في داخله بزخم من الأحلام والطموحات والطقوس.

– أتكتب شيئًا من الشعر؟

– حكايتي مع الكتابة بدأت في آخر سنة من الدراسة الإعدادية بميولي للشعر العمودي؛ حيث كتبت أول قصيدة ليقرأها أستاذي في اللغة العربية[1] ويوجهني بتوجيهات خدمت مشواري في الكتابة فيما بعد.. حيث

١- أستاذي الفاضل ساعد بن ورخو؛ الذي أكن له كل التقدير على فضله وتوجيهاته.

تفجرت الرغبة في الكتابة بعد سنة من الملامسة الأولى للبناء الشعري والقافية والبحور الشعرية. لكن بعد الالتحاق بالجامعة – وكلية الحقوق تحديدًا – وجدت الشعر لا يعكس كل المتناقضات التي تتصارع داخلي، ولم يكن قاموسي اللغوي وتحكمي في فنيات الشعر الكلاسيكي يشفيان احتياجاتي النفسية في الكتابة، فاكتشفت مصادفةً بعد محاولة واحدة في القصة القصيرة أني أستطيع الكتابة نثرًا أكثر بكثير من مقدرتي على الكتابة شعرًا، فكانت الانطلاقة في عالم نثري أكبر مساحةً وأوسع أفقًا.

– أتقرأ لي مما تكتب؟

×××

كنت أقرأ لها بكثير من السعادة، وبكثير من الرومانسية والخيال؛ حتى أنها كانت تفقد إحساسها بالزمن والمكان كما كنت ألمس ذلك من معاودتها للحديث. كانت تعبر في المحطات التي نتوقف فيها بين جزئية نثرية وأخرى عن دهشتها بالصور التي ترتسم بعد مرور الكلمات على الذاكرة.

تبادلنا بعدها جلسة تعارف معمقة عن أنفسنا وعن أسرتينا والعائلة الكبيرة. كان إعجابي بها يزيد بزيادة مساحة التواصل بيننا.

انتهى حوارنا بإجمالي ست ساعات، لأنام بعدها في حدود الساعة الثانية صباحًا في حالة لم أجد لها تفسيرًا جمعت بين السرور والدهشة.

استيقظت مملوءًا بطاقة مبهمة المعالم الساعة السادسة والنصف، وخرجت إلى العالم بعد ذلك بربع ساعة. أول من التقيته صديقي المهندس «مفتاح». كنت أكلمه باللهجة المصرية: أسلم عليه وأسأله عن حاله.

كان مندهشًا، وراح يسألني إن كان أصابني أي مكروه، فأخبرته

حكايتي وأني سعيد جدًّا. استغرب سعادةً بهذه الألوان وهذا الدفء بعد مكالمة واحدة مع فتاة أعرفها لأول مرة في حياتي ولا تجمعنا ذاكرة ولا محطات..

كنت سعيدًا وحسب.. لا تهمني التفاصيل الدقيقة..

×××

جمعنا لقاء آخر لا يقل عن الأول جمالًا؛ تحدثنا فيه عن استغراب صديقة لها بتفاصيل هذا القدر الذي جمعنا، وأنها حدثت صديقتها المقربة كما حدثت صديقي بحرارة لا تعرف سرها بإعجاب وبدفاع مستميت عني وعن أهل الجزائر، وكأنها عاشرتنا القرون التي تحدثت عنها معها.

زادت مساحات السعادة بلقائها الثاني، وقد تحدثنا فيه عن بعض محطات الذاكرة الشخصية وقرأت لها نصوصًا مختارةً جمعت النقيضين: الحب الدافئ الحالم والجرح النازف، وافترقنا وكأننا لا نريد أن نفترق..

صار النوم في محل عملي عادةً بعد لقائنا الأول وصار انتظاري لها جزئيةً مهمةً في كل مساءاتي القادمة بعد لقائنا الأول.

×××

— ٤ —

في لقائنا الثالث، وبعد الاطمئنان على الحال والصحة والتحدث عن الطقس ودرجات الحرارة والسؤال عن الساعة وحتى عن مشاريع الغد — باستباقية توحي بحاجة لحوار مطول لا نهاية تُرَجى له — راحت تبادرني بجملة مرتبكة:

— بودي أن أطلعك على أمر بالغ الأهمية.

— وما هو؟

— أنا كفيفة.

— وأين المشكلة؟ لا يعيبك أنك كفيفة، وإن حرمك الله البصر فإنه — سبحانه وتعالى — لم يحرمك البصيرة، وأنعم عليك بأبوين طيبين. وصلت — بعد عناية الله وفضله — بعناية أب واهتمام أم وبما وهبك الله من ذكاء وحضور إلى مستوى مرموق اجتماعيًّا؛ حققت نجاحات متواصلة في مسارك الدراسي والتحقت بالجامعة ...

إجمالات لحلم كبير عجز عنه الأصحاء من سليمي البصر. تعملين في مجال اهتمامك، وتمارسين حياتك بشكل طبيعي وبثقة. كف بصرك لا يثير استنكاري وأنا أحدثك عبر الانترنت؛ بل يثير إعجابي هو وكل ما عرفته عنك بتحديك الذي يليق أن يُدَرس لكثير من الأصحاء ممن سطا عليهم اليأس والقنوط ...

لكن من باب العلم بالشيء وفضولي؛ عرفيني عن طبيعة وماهية التقنية التي تسهل عليك التواصل؛ كي أبني فكرةً سليمةً واضحةً.

— أتصدق أنك أثرت دهشتي من موقفك؟ لأول مرة أجد أحدًا

يصدقني من أول حوار أني كفيفة ولا يستنكر علي استخدام الكمبيوتر أو ما أستطيع عمله كأي فتاة طبيعية.

– رحمة الله وسعت كل شيء. قد حرمك من شيء وعوضك أشياءً.

– جوابًا على سؤالك فإن هناك برنامجًا يسمى قارئ شاشة أو برنامجًا ناطقًا ويعتمد عليه غالبية المكفوفين وهو (Jaws) يُنْطق (جُوس) وترجمته (الفك)؛ وهو برنامج غير مجاني لكن نعتمد على تقنية لفك الحماية – وأنت أدرى بها – وهي تتمثل في (كراك) (Crack) لتشغيله كما يجب..

وهناك برنامج آخر اسمه «NVDA__Acapela»، وأي منهما يعرفنا بالأيقونات والاختيارات؛ بمعنى أنه بواسطة هذه البرامج نعوض البصر بالسمع.

وتقول الدراسات أن الكفيف ذو حاسة سمع حادة وذاكرة قوية؛ مما يسهل لنا التعامل على مختلف أجهزة الكمبيوتر العادي؛ فلا يُوجد لنا جهاز مخصوص..

كما نخضع لدورة تدريبية من أجل تعلم استخدام لوحة المفاتيح (Keyboard)؛ نحفظ كل مكوناتها ودلالات عناصرها واختصاراتها، ونتعلم الكتابة بدقة وسرعة مناسبة.

– جميل! ممتاز! العلم يتجاوز عجزنا ويلبي حاجاتنا. فقط علينا بالبحث والعمل وعدم التوقف عند حواجز ما.

كانت معجبةً بالتفاعل الإيجابي معها وعدم استنكاري ما يمكن أن تصنعه. وجدتها بعد ذلك تفتح الكاميرا كأنها تريد تقديم الدليل الدامغ أنها كفيفة.

رأيتها، ركزت في عينيها وفي البياض اللامع في حدقتي العين الذي أكد لي كف بصرها. بدت لي جميلةً جدًّا وصادقةً. نبض قلبي نبضةً غريبةً مفاجئةً، فأمسكته كأني أكبح انفلاته وانزلاقه في مطب حلم لم أتبين بعد أبعاده.

تحدثنا عن التهميش المجتمعي للكفيف واعتباره عالةً عليه. والنظرة الفوقية للأصحاء؛ الذين يعتبرون الكفيف ثقلًا على أسرته وعبئًا وكائنًا سالبًا للسعادة ...

يحدث هذا في كثير من العائلات قليلة الوعي والإدراك – وما أكثرها – مما يوصلها إلى إنهاء حياة الكفيف إلا من المأكل والمشرب، واعتباره أحيانًا عقابًا ربانيًّا، ينمون غضب الرب باستنكار هذا القدر والاعتراض عليه بمزيد من القهر لهؤلاء.

حتى في الطبقات المحسوبة على المثقفين يرون إبداع الكفيف معجزةً تقترن بحالات نادرة، وأن الكفيف موهوب في شيء واحد لا غير؛ لا يحسن غيره، وهو شيء يميل إليه هروبًا من عجزه وإعاقته ...

مجتمع معاق فكريًا عندما يعتبر الكفيف كالمزهرية الصينية الفاخرة من العصور الغابرة لمقاتلي (الساموراي)؛ تُوضَع في زاوية من البيت وتستهلك عمرها في التنفس وحسب. أو يعتبرها آخرون لعنة السماء عليهم، وبدل أن يستغفروا لذنوبهم يلعنون الأقدار، فتزيدهم السماء غضبًا على غضب..

×××

— ٥ —

17 ديسمبر 2010: في تونس كانت تُرَسَم لوحة غيرت الكثير من مشاهد العالم ...

محمد البوعزيزي الذي أنهى حياته حرقًا غضبًا على إهانته ومصادرة مصدر رزقه ... تلك العربة البائسة التي كانت تصنع له متنفسًا من البؤس والشقاء كي يعيش بالحد الأدنى للكرامة ... تلك النفس الشرقية المتخمة بالوجع والتي ترفض الإهانة، وتوجعها بشكل مضاعف إذا كان الطرف الآخر أنثى ...

نعم؛ نادية حميدي كطرف أصيل في الحكاية، تلك التي أوقدت بتصرفها غضبًا أحرق البوعزيزي وكاد يحرق تونس بأكملها ... في لحظة فارقة انفجر الغضب والصمت الشعبي ... غضب شعبي أرادت أن تصادر قوات الأمن صوته وأمواجه كما صُودِرت عربة البوعزيزي فسقطت أرواح أخرى؛ ولم يسقط الغضب!

كنا نتابع ونشاهد الحكومة التونسية – بطريقة موازية لتصديات الأمن – تحاول أن تقدم حلولًا مخدرةً، لكن الشعب لم يقبلها؛ لأن ذاكرته اكتسبت مناعةً من التخدير بالوعود والخيارات الواهية، ولم يسقط الغضب!

وسقط زين العابدين بن علي بهروب وفرار من واقع صارخ بغضب جارف ... ولم يسقط الغضب!

كنا نتابع كل تلك التطورات عبر شاشات العالم التي كانت ترصد اللوحة الطيفية للغضب والدم ...

5 يناير 2011: تُطوى آخر صفحة في حياة البوعزيزي بعد أوجاعه التي تضامنت معها تونس والعالم أجمع، وبدأت تمد شرارةً لقادم

أكثر مأساويةً ... صار فيها الأحمر والأسود أبرز لونين في المشهد: الدم والنار والرماد ...

ثورة تونس لم تكون ثورةً تونسيةً وحسب ... كانت مرآةً لكل موجوع في الوطن العربي، والذي رأى ما رآه في تونس ضرورةً يجب أن يقتدي بها.

17 ديسمبر 2010 لم يكن تاريخًا عاديًّا ... لم يكن انتحارًا عاديًّا أو محاولة انتحار انتهت بعد معاناة إلى موت حتمي ... ونادية حميدي لم تكن مجرد أنثى قاسية بل كانت يدًا صنعت كرة ثلج من غضب ورمتها في وجه التاريخ؛ لتنطلق وتكبر وتكتسح تونس، وتتعدى إلى مشارق الأرض ومغاربها.

البوعزيزي ونادية حميدي لم يلتقيا كزوجين؛ إلا أنهما أنجبا في لحظة غضب ثورةً بتوائم كانت تُولد – على التوالي في بلدان عربية أخرى – من أحشاء الذاكرة المتخمة..

×××

25 يناير 2011: في مصر هذه المرة.. شباب ممتلئ غضبًا وخنقًا من واقع كريه لا يقل في كراهته عن واقع تونس التي كانت مرآة الوجع العربي في هذه الفترة..

مشاهد أعجز أن إجمالها وحوصلتها في سطور عابرة.. وجع أكبر من الوصف وأكبر من القواميس التي تحتوي مرادفات ما وصلنا إليه.. إعصار يجتاح الشوارع ويحرك المشاعر.. وقلق يرتفع كالأنفاس؛ نحاول أن نكتمه لكنه ينفجر في وجه الصمت..

قلق!

نعم؛ لقد تمكن مني القلق.. قلق وخوف وتواصل مقطوع؛ ثلاثية موجعة كانت تصنع تفاصيل أيام متتالية. أمام كثير من محاولات الاتصال بها والتواصل معها وانتظارات بالجملة كانت مساحات قلقي تزيد، وكان سؤال بوزن انتظاري يفرض نفسه على أنفاسي كلها: لماذا كل هذا القلق؟

كنت أفتقدها حد الوجع. كنت أسأل نفسي: لماذا يحصل هذا معي؟ كنت كثيرًا ما أتهرب من الإجابة لأني كنت خائفًا من مواجهة نفسي.

كانت محاولاتي اليائسة في انتظارها والاتصال بها دون جدوى تزيد عمق حاجتي إلى حضورها لتريح قلبي من عذابات أسئلته الموجعة: هل ماتت؟ هل قُتلت؟ ما أخبارها؟ ما أخبار أهلها؟ كيف يمكنني الوصول إليها؟

هل تقيم السفارة المصرية وزنًا لقلقي على مواطنة مصرية لا تجمعني بها إلا أحاديث المساء عن الكتابة وعن الأحلام وعن صراعاتنا مع المجتمع؟ هل أمتلك الصفة والمصلحة الكافيتين لإثارة سؤال عن مصيرها مع سفير همه وطن بأكمله يعيش أكثر أيامه وجعًا وفوضى لا حدود لها، ولا تكهنات واضحة عن مدى ما ستحمله أكذوبة القرن؟ أكذوبة سموها: الربيع العربي.

لا أعارض الشعوب على ثوراتها ضد كل أنواع الاضطهاد والإقصاء والفساد لكن بشرط أن تكون صنيعَ النخبة من أبناء الوطن بالتحرك من أجل التغيير للأفضل بخطوات مدروسة وانتقالات نوعية تدريجية.

أما الثورة بالتدمير والتكفير و.. و.. و.. ما هي بثورة وإنما هي حلقة من حلقات استغبائنا كشعوب تنقاد لبريق الحضارات الغربية وتحلم بالأفضل بطرق فاسدة أو أكثر فسادًا.

يا وجعي عليك أيتها الساكنة روحي وقلبي يا بنت مصر التي لا أعلم عنها شيئًا.

– ٦ –

بعد أيام رن هاتفها. ذُهِلت في الأول إلى درجة أني أنهيت المكالمة وأعدت الاتصال لأتأكد أنه من الممكن مكالمتها حقًّا. نعم؛ إنها على الخط فعلًا. أجابتني بلهفة واندهاش. كانت تنتظر مكالمتي وكانت مندهشةً أني كنت مصرًّا على الاتصال بها والاطمئنان عليها.

تمنيت أن تجمعنا لحظات أطول من دقيقتين ونصف سرقت فيها بعض السكاكر لأحلي بيها ساعاتي القادمة، وبعض التفاصيل منها ومن صوتها أهديها لشوقي التائه في مساحات الانتظار أطمئنه عليها وأخفف وطأة الوجع من فرضية فقدها.

كانت العودة إلى المحاورة عبر (السكايب) أروع حدث منذ بداية ثورة يناير 2011 بمصر. وكان تواصلنا يحمل الكثير من الأسئلة والاستفهامات عما حدث وعما يحدث وعن أبعاد الصورة الحقيقية.

قد تسلط الكاميرات الضوء على بعض الزوايا من المشهد وتغفل زوايا أخرى لا يوصلها إلا صوت ابن اللحظة وابن المكان الذي يعايش الأحداث ثانيةً بثانية وبكل أنفاسه، بكل ماضيه وحاضره ومستقبله الذي من الممكن أن يحمله بين يديه إلى نهاية حتمية في لحظة جنون.

×××

– ما أخبارك يا جنا؟

– بخير، أحمد الله على كل حال.

– قلقت عليك كثيرًا.

– أحسست بذلك من مكالمتك، وأسعدني ذلك.

– الحمد لله أنك بخير. كيف الأجواء العامة عندكم؟

– هي الليلة الثانية التي أمكنني أن أختلي بنفسي مع شعور بالحد الأدنى للأمان الذي يمكنني فيه أن أكلمك دون رعب. ما أخبار لياليك وأيامك؟

– باهتة بسبب قلقي عليك.

– إلى هذه الدرجة؟

– نعم؛ فوجع الوطن العربي ومنظر الدماء يجعلنا – ولو كنا بعيدين عن ساحة المشهد – موجوعين بحجم تعجز الكلمات عن وصفه.

– صدقت! فالأوضاع لا تسر بالجملة..

بعد لحظة من الصمت في لحظة ارتباك مني راحت تسألني..

– ما جديدك؟ ما جديد كتاباتك؟

– جديدي لا يُذْكر فهو نسخة طبق الأصل لما عرفت ما عدا المساحات الفارغة التي خلفها غيابك، أما جديد الكتابة فموجود..

– هات لأسمع منك..

– تعلمت اليوم طقسًا جديدًا في الكتابة؛ هو الكتابة بقلم الرصاص. هذا ليس معناه حب التملص مما أكتب! بل إنها الرغبة في الاحتفاظ بأوراقي كلها. سأكتب بشكل جديد.. بطريقة جديدة؛ تمزج بين الكتابة والرسم.

عندما أخط حرفًا لا يعني أنه مجرد حرف دال على معنًى محدد؛ بل أسكب فيه الحياة بشكل آخر، حيث يكون رسمه قصةً أخرى بجانب المكتوبة على الورق. أريد أن أكتب بنفس أعمق، وأن أستحضر كل طاقتي ومشاعري في الكتابة، وعندما أخطئ في كلمة أو سطر لا يعني رمي الورقة ككل.

تكفي مسحة بسيطة من ممحاة لأصلح الوضع.

كل الأوراق أصبحت ذات أهمية منذ أن عرفتك، وبما أن الورق أسكب عليه جزءًا من تاريخي فهي وفق هذا جزء مني لا يصلح رميه. يمكن تصليح الأخطاء بمجرد مراجعة، كمن يخطئ في حق حبيبه ثم يلجأ لطلب الصفح بكلمة مثل آسف؛ تحمل روحًا مُجَدِّدة للحب في لمستها السحرية للقلب كما لمسة القلم للورق وهو يرسم هذا الحب ليخلده على الورق.

اُنظري إلى انسياب الحرف يشبه معزوفة المساء التي تتغنى بحبك لأنه خُطَّ بنبضي في أجمل لحظات الصفو مع الذات. لأجلك سأكتشف طرقًا جديدةً للكتابة.

– لي دهشة ممتدة من هنا إلى حيث أنت بسبب حرفك ومساحاته الموسيقية! يبدو أن خلوتك الليلية تزيدك إبحارًا في مملكة السرد؟

– نعم؛ في خلواتي أكتشف نفسي، ومع كل جلسة خلوة – في هدأة الليل – أكتشف رغبةً متجددةً وجديدة الملامح في الكتابة، فأسافر في النص وراء النص وأعيش الحالة وراء الحالة..

– ليلك بهي الطلعة والأنفاس!

– الليل له معي حكايات عميقة ...

عندما يختلي الواحد إلى نفسه في هدأة الليل يسافر بلا تذكرة، بل يسافر طيرانًا على بساط الريح، أو عبر الزمن، أسرع من الضوء وأسرع من الحلم، وأسرع من كل الماديات في عالمنا المحسوس..

في كل مرة كنت فيها أسمعك صوت حرفي كنت أمنحك تذكرةً مجانيةً لدخول مملكتي.. كنت أعرفك من انعكاسات النبض في عينيك..

كنت أعرفك تباعًا بحقول الياسمين، ووديان العشق، وشلالات الوجع القديم، وبعض النخيل في صحراء التيه والشوق.. كنت أمنحك فرصةً لتذوق بلح النخيل بجودة (دقلة نور) وأرقى.. وفرصةً لشم كل أشكال الزهر والورد..

قد يحدث أن نلتقي.. عندها سنتحدث كثيرًا، وأصف لك جنوني مع الكتابة ومغامرات كثيرة صوتًا وصورةً مع أقدم صديقين: الورقة والقلم..

– هل لي بواحدة من مغامراتك لهذه الأمسية؟

– طبعًا؛ ستكون لك واحدة منها.. سأختار لك واحدةً تلامس الواقع بشكل مدهش..

– هيا.. أسمعني..

– في يوم من أيام الشتاء؛ عشت حالة جنون مع المطر؛ وكتبت: لست الوحيد المجنون بحب المطر، كنتِ أكثر جنونًا مني.. كانت الدهشة، والسعادة تمتزجان فوق المشهد وأنتِ ترتجفين كالعصفور المبلل الجناحين..

التقينا تحت المطر.. صمت أَطبق على الشفاه المرتجفة.. نظرنا إلى أنفسنا في نظرنا لبعضنا، ثم ابتسمنا حين أيقنا أننا مجنونان..

لست أدري؛ أبحب المطر أم كنا مجنونين بالجملة! كنا رائعين، وكنتِ الأروع في المشهد..

اقتربتُ منك، واقتربتِ من قلبي أكثر.. وصغر حجم المسافة الكلية.. صرخ قلبي في وجهي أني أحبك عندما امتزجت أنفاسنا تحت أنوفنا، وهما قريبان جدًّا، وبعيدان بمسافة خطوة مجنونة..

أعيننا أزاحت الستار عن قصتنا، وشفاهنا تحدثت بالحكاية في صمت مقدس.. أغمضنا أعيننا، تنفسنا بعمق، وتأوهنا في اللحظة نفسها، وابتسمنا تباعًا، أنتِ ثم أنا، وكأننا قلنا كل شيء حين لم نقل أي شيء..

وتركنا قلبينا يمتزجان في جنون تحت المطر..

كثر المارة، والراكضون، والهاربون من المطر.. كنا الوحيدين الواقفين بشموخ العشاق تحت المطر ... لأنهم لا يثقون بالحب، وبالآخر، فهم يخافون المطر، لأن المطر يعري؛ ويغسل الحقيقة، فهم يلجؤون إلى أي مكان هروبًا من المطر..

كنا وحيدين في المكان والزمان، لأننا فقدنا الإحساس بهما لحظة غمرنا المطر، وغسلنا، وزاوج بين أنفاسنا..

كانت المسافات تتلاشى، والمكان يعيد بناء نفسه.. كنا نبني في أعماقنا قصرًا من رخام، معطرًا بمسك وريحان.. كان قصرًا شامخًا شموخ الحب الذي قِيلت قصته في ذاك الصمت المهيب..

كانت يداي تمتدان شيئًا فشيئًا لتلامس يديك الطاهرتين..

قلت لك في صمت آخر: ألا تدخلين معي قصرنا هذا؟ ابتسمتِ مرةً أخرى معلنةً أنك موافقة.. تشابكت يدانا، وبدأنا المسير.. سرنا طويلًا تحت المطر.. لم نقل أي شيء.. قد قِيل – منذ البدء – كل شيء..

عندما كان لا بد أن نفترق يومها، أذكر أننا غرقنا مرةً أخرى في حكاية الأعين الملتهبة شوقًا وعشقًا.. حينها رأيت دمعتين ترسمان خطي رحيلهما فوق وجنتيك، كسرت صمتنا في صمت آخر.. فسارعت لمعالجتهما في حركة دافئة، ثم أحطت وجنتيك بيدي، وحركت رأسي يمينًا ثم يسارًا وأنا أبتسم نصف ابتسامة اختفى نصفها الآخر في ظل سؤالي أن لا داعي لدمعتك تلك، فهي تثير خوفي من شيء أجهله مطلقًا.. من شيء أخاف أن أواجهه وأنا لا أعلم مداه..

أغمضتِ عينيكِ، واتكأتِ برأسكِ على إحدى يدي، ثم نظرتِ إلي تتفحصين درجة حرارة مدينتي التي التهبت على حين غرة فوق التهابها الأول..

كانت شفتاي تقتربان في خوف من قدسية المكان لترسم فوق جبينك ما يشبه الإمضاء والختم على معاهدة الحب الأبدية.. حينها فررتِ على عجل، وبقيت وحدي تحت المطر..

مطر! مطر!

وتوقف المطر.. فلم يعد يجدي توقفي، لذا قررت أنا الآخر أن أتوارى عن المشهد والعودة من حيث أتيت أول النهار..

أحبك.. كلمة كسرت الصمت الطافح..

– نص متخم بشاعرية مطرية!

– نص ألزمني الفراش ثلاث ليال من الحمى بعد سير مجنون تحت المطر أزيد من ربع ساعة حد تبلل شراييني..

– كيف تكتب بهذا الاكتظاظ من الصور الجمالية؟

– أنا أكتب بالنبض، وبعطر الروح والذاكرة، وبموسيقى المشاعر، وبتناقضات النفس وسمو الأنا.. وأزرع في النص صورًا تجعل الكتابة مدينةً حيةً تتنفس.. أما عن العلاقة مع الكتابة؛ فكوني عاشقةً لها لتنصفك، وتجعلك أميرةً وملكةً وشاعرةً وكاتبةً ومجنونةً وأنثى مكتملة كالبدر..

×××

– ٧ –

في مساء انفرادي.. أبهرني تألق نجمة صنعت الاستثناء على صفحة السماء.. كانت تزداد نورًا بعد كل نظرة عميقة إليها، وكان حجمها يكبر مع كل خفقة قلب ليتجاوز حجم القمر ثم حجم الشمس، ثم استحالت إلى أنثى من أساطير اليونان والإغريق لتتنازل عن سمو مكانتها وتأتيني بكل أنوثتها..

في شتاء محموم بالتناقضات أوقفت أنفاسي لحظات هذا اللقاء دهشةً، وراحت تمسك يدي وتنحني بجسمها الرشيق، وتقول لي: مساءً بهيًّا شاعري! وراحت تتبعث بين أصابع يدها الأخرى – ومن عدم – وردة ساحرة سحرها الآخذ للعقل..

أمسكتها من يديها التي لامست أصابعها أصابعي في حالة من الارتباك الذي أحاله عطر الوردة إلى مقدمة ليلة مجنونة..

– تعلمت أن أكتب بسبب قراءاتك وبوحك في ليال ممتدة سحرًا وجمالًا.. وراهنت النجمات أنك ستعلمني المزيد من طريقتك.. وإني خططت على ورق بوحي بعض خربشات استوحيتها من وحدتي ومن وجعك.. فهل أسمعك مما كتبته؟

بوحها المستفيض الموجع أبهرني وشدني إليها وإلى كل حرف كان يرتسم في لوحة نصها.. أتتني بملامح وجهها لكنها تبصرني جيدًا وتراقب تحركاتي داخل مربعات البوح وممرات الذاكرة على كراسة كنت أرسم فيها بعض التفاصيل المبهمة على وتيرة بعض الاستفهامات والتوقفات..

أتت تقتبس من كلامي، وتقتبس من وجعي في نص أرادت فيه محاكاة

طريقتي في الكتابة بلحن أنثوي.. قرأت لها وقرأتها، وابتسمت في وجه نبضاتها الخافقة انتظارًا لمناقشتي.. عدلت في جلستها بعد إكمالي قراءة النص، ثم غمزت مشاعري بعينها العسلية لتستفز بوحي..

– كلماتك المعبرة والدافئة والحزينة أدخلتني جزيرتك لأعبر لك فقط عن إمكانية صنع المفارقة والفارق والخلاص من أناتنا وآهاتنا ولو إلى حين..

تحدثت عن جزيرتك بحزن وخوف جليين بالنسبة لي، والوحدة صنعت حضورها بقوة تلامس ما أشعر به داخلي.. كنت أتراجع في كل مرة أحاول فيها الكتابة لأجلك تعقيبًا على ما بحتِ به! سأضع حدًّا لهذا وسأقول لك صوتًا مسموعًا وحرفًا مقروءًا ...

وجدتني أمام جزيرتك لأذكر ما يقابلها في عالمي الخاص.. ربما لا أملك مكانًا بمعنى الجزيرة تلك، لكنه مكان قريب منها في صفاته والصمت المحيط به، والصراعات المريرة التي تحدث فيه..

في الحقيقة أملك مكانًا متنقلًا، فيه أشجار خضراء، وأخرى يابسة في إحدى زوايا المكان، يبعد بمسافة آهة عابرة، وفيه طيور مغردة، وشمس وقمر؛ يتناوبان الزمان والمكان، وصوت الموسيقى يكاد لا ينقطع بألحانها الحزينة وألحانها الدافئة..

هذا المكان؛ أحمله معي في حقائب سفري لأجوب به العالم، وأتجول فيه في لحظات أجد فيها نفسي بعيدًا عن الناس، أو في لحظة أباعد فيها نفسي عن الناس ولو كانوا بقربي..

جزيرتك مميزة، ودليل تميزها أنها أغرتني بالولوج إليها، والتنقل بين زواياها، والتنقيب عن الأنفاس التي تصنع نسقها، وتمنحها الجمال

الرباني الخالص.. في ممراتها كنت منبهرًا بها، وكنت من شدة الانسياق في التأمل أتعثر أحيانًا بكلمة تصنع حيرتي، وتوقظ الحزن داخلي.. حزن أعرف سره، ومنحاه.. شعور بالضياع هز جسدي، وأيقظ حركة الحزن المكبوت باتجاه القلب ليجتاحه على حين غرة..

وجدتك بعد زمن من التنقل، والانتقال بين الأمكنة، والكلمات، والمشاعر المتضاربة.. وجدتك واقفةً بشموخ حزين، والصمت المبهم يحيط بك من كل النواحي. رأيت المطر يبللك بشاعرية، وأنت في استسلام آني للحظة صرخت بالقلب أن قف! تمتع بهذه اللحظة النادرة المملوءة بالمشاعر كلها. قليلة هي اللحظات العنيفة في صمت مقدس، والتي تحمل المشاعر برمتها في المشهد الواحد..

خالج نفسي شعور غريب بضرورة دخول الحدود، ورسم لمسة أخرى.. رأيت لحظتها شعرك المبلل يرتجف برقة.. حاولت تمرير يدي عليه برفق لحظتها، لكني أحجمت لأن اللحظة فرضت هيبتها، فأبيت أن أخدش الصورة وأشوهها بحماقة، وتركت نفسي خارج إطار المشهد إلى حين..

كلمات: الحوار، اللغة، التواصل.. كلها تنصب في بوتقة واحدة: الانسجام الإنساني..

عندما لا يجد الإنسان من يبادله التنقل بين الكلمات، والتعبير عما يختلج النفس من هموم وأكدار ووساوس، وعما يؤمن به من مبادئ وقيم، وما يراه صوابًا، وما يراه غير ذلك ... يفقد مصداقية الكلمات وجدوى الحوار والتواصل، ويصبح يرى التفاعل الإنساني مجرد ترهات وأباطيل، ويكون أمام محنة ومصاب جلل!

لكن الأعظم من هذا كله أن يجد الناس بأجناسهم وألوانهم ومشاربهم واتجاهاتهم، ولا يجد فيهم من يمنحه فرصةً للتحرر الحقيقي من بوتقة النفي الذاتي..

التحرر الحقيقي من حصار الصمت والكبت هو أن نتحدث بصدق، وبصراحة، وبإيمان عميق بمعتقداتنا لأحد ما يمكننا من الحديث المسترسل، والحوار البناء بطريقة لبقة في لحظات حسن استماع واستمتاع بالتواصل الحقيقي.. في حالة كهذه سنكون في فترة وجيزة حطمنا الحواجز وتجاوزنا مرحلة الصمت والكبت، ونجحنا بامتياز في تحقيق أنفسنا، وحصلنا على التوازن النفسي، والفكري..

المصيبة الكبرى عندما نجد العشرات من الناس المحيطين بنا والمدعين أنهم الأقرب، والأصدق، والأحق بالصحبة لا يقيمون وزنًا لمشاعرنا، ومبادئنا، وآرائنا، وتجدينهم يلتهمون الكلمات، والساعات ونحن مبهورون بهزيمتنا المؤكدة أمامهم..

وعندما تُمْنحين فرصةً لقول شيء ما تجدين التهكم والسخرية، والاتهام بالرجعية والغفلة والجنون.. مصيبة كهذه لا أشد منها على صعيد الحوار الإنساني.. أمام هذا لا يجد الواحد سوى التكتم، وأرشفة أنفاسه، وعند هذه المرحلة يصبح الإنسان أمام حرب نفسية لا بد من دخولها، وفي الغالب سيخسرها إلى حين، ويجد نفسه بعد زمن أمام مخلفات حرب شرسة؛ الشيء الوحيد الذي ربحه فيها هو بقاؤه على قيد الحياة..

وتبدأ رحلة الألم.. في بادئ الأمر يحس بوخز في القلب؛ يشتد في لحظات متفاوتة، ثم يصبح الألم رفيقًا حميمًا، حينها يبدأ اليأس في

التغلغل مع كل هزيمة جديدة ومع كل صفعة يتلقاها القلب، ويفرض الاكتئاب نفسه على المدينة؛ فتصبح جافةً وتفقد نداها وتفقد مداها، وتبدأ بالتقلص والاضمحلال وتصير بحجم أصغر؛ فتنطوي على نفسها، وتنطوي الأنفاس والكلمات، وتصبح الحكايات عبثًا والكلمات انتحارًا، ويصبح الكبت الحل الوحيد!

يغلق في هذه المرحلة الإنسان نوافذه وأبوابه، ويصنع من العدم سجنه وقيده؛ عله ينجو من خسائر إضافية قد تقضي على الباقي من طلع الأمل الهارب بين ذرات التراب الذي مازال طاهرًا بعد، لم يُدَنس بحماقات البشر..

سجنك الذي صنعته لنفسك صنعت ما يشبهه يومًا في أرضي.. صنعت برجًا، ودججته بالنار، وحرمت الجميع من الدنو منه، وحرمت النساء من أن يقربوا أرضي، وينعموا بشدوي لحظة يغمرني الجنون في لحظة أفقد فيها الإحساس بالألم القديم، وأعلنت أن أرضي تأبى أن تكون وطنًا لأي امرأة..

كيف لا، وأنا عندما كنت أبحث عن وطن لقلبي جرعتني حبيبتي الأولى السم الزلال..

في لحظة ما فتحت بعض الممرات السرية لأرضي كي أتنفس، وامتنعت عن فتح منافذ أكبر لأني ما زلت أخشى الخيانة الأولى، والخطيئة الأولى.. فعندما تمنحين قلبك وعطرك، وأيامك دفعةً واحدةً لإنسان لا يستحق لحظةً واحدةً من عمرك تكونين أمام الخطيئة..

كنت من قبل عندما أتحدث عن الحب أشعر بالقرف من نفسي التي ما

زالت تؤمن الإيمان الأعمى بأنها قادرة على العطاء في كل لحظة.. الحب طاقة، ومنح الحب يستهلك هذه الطاقة، فإن لم يجد الإنسان بدلًا سيلقى حتف عقائده بين عينه وهو عاجز عن فعل شيء.. الآن، ومعك أنت يسعدني الحديث عن الحب..

الخوف! تحدثت عن الخوف بشكل صارخ.. هذا الخوف المبرر يحاصر الأماني، ويصنع من لحظة الحلم كابوسًا يلتهم الأنفاس، ويرمي بالمدينة كلها من عل.. تجدين نفسك تصرخين.. تسقطين في حيز شاقولي لا متناهي الأطراف.. لا.. لا.. لا.. الخوف.. الخوف.. أنا أسقط.. أنا أضيع.. لا..

تستيقظين بعد هذا المشهد منهكةً، ومنهارة القوى.. مشهد بهذا البعد، ومشاهد أخرى تجعل منك أسيرةً حقيقيةً لعدو حقيقي ألا وهو الخوف!

الخوف الذي كبلني يومًا أن أصرخ بأعلى صوتي أني أحب هو الذي صنع هزيمتي أمام التي رحلت دون أن تقول شيئًا، ودون أن تلتفت إلى مدينتي المنهارة عندما قرر القدر صنع المفارقة، وصنع الرحيل الأخير..

الخوف الأحمق كان وراء الهزيمة، والخيانة الأولى كانت وراء صنع هاجس الخوف.. والزيف الذي أصبح يطبع الأيام، ويوقع على كل المعاملات الإنسانية هو العدو الأكبر. والزيف من صنع الإنسان، وإذًا: الإنسان هو العدو الحقيقي للإنسان.. آه؛ ما أشد قسوة نتيجة كهذه..

أعتقد أني لن أستطيع عند هذه النقطة المواصلة..

×××

لم تتردد في صنع مباغتة لصمتي في لحظته الأولى وطبعت قبلةً على جبيني وترجتني بعذوبة ...

– لأجلي أكمل الصورة..

– لنغير مسار البوح هذا.. دعك من هذا لنتكلم عن محاولاتك في البوح التي أبهرتني وأخذتني من نفسي إليك.. وتعالي إلي أعطيك ما في جعبتي..

وضعت فاصل صمت آخر؛ بين عارضتي امتداده غسلت وجهي من ملوحة الدمع بماء نقي، ورحت أشد ببرودته تجاعيد توازني كي يكون أكثر نضارةً.. أما هي فكانت تجلس بجوار الشباك تضع باطن يدها على ذقنها كأنها تسند رأسًا متعبةً بالوجع، وتتوه في أفق ذاك الليل المبهم، وتعود إلي تمر بين الحرف ورسمه وتشكيله وتلك الفواصل المصنوعة صمتًا.. تكلمت بعد جرعة من نور وجهها المشرق..

– تعالي أعلمك بعض فنون الجنون ... للجنون في مدينتي طقوس مميزة عندما تحترفينها ستكتشفين أنك الأعقل بين الناس، وأنهم هم المجانين.

اختلي بنفسك حتى ولو كنت بين آلاف منهم.. أخلي فكرك منهم، ومن ترهاتهم وأباطيلهم وزخرف قولهم؛ الذي لا يزيد القلب إلا ضياعًا. امسحي الزمان من المكان، والمكان من الزمان، وأزيحي كل المواعيد، وكل الرغبات وكل النزوات، وتطهري من وساوس النفس العفنة، ثم انتزعي روحك من جسدك، وجسدك من الذاكرة، وارحلي بكل قوة إلى عالمك القادم من العدم ليضرب الحاضر في عقر داره..

تنفسي بعمق.. تنفسي بعمق أكبر.. أغمضي عينيك، وارفعي نفسك عن الأرض.. حاولي مرات عدة.. إن فشلت فلأنك ما زلت متعلقةً بأدران

النفس الحمقاء.. كم مترًا يبعد بينك وبين سطح الأرض؟ ما يقارب المترا! جيد؛ لقد تغلبت على جاذبية الأرض، وجاذبية الناس لأن كلتيهما تجلب لك مزيدًا من الأحزان وحسب!

طوفي كما شئت وارحلي إلى المكان الذي شئت، وعندما تعودين إلى أرضك آخر اليوم منهكةً احذري أن تأوي إلى مخدعك كمغفلة قضت يومها باللهو والعبث.. ابحثي عن الشمس.. ستكون ترسم آخر خيوط الوهج الذهبي..

اغرقي في ذلك الوهج، ثم تأوهي بعمق.. عندما تمعنين النظر جيدًا سيأخذ لبك كليةً، ويستنطق الشفق صمتك الأحمق، فترسلين كلمةً ما في لحظة ما مملوءةً بالحقد الأعمى لأغلى إنسان تحبينه، وتصرخين أنك تكرهينه بعنف كما لو أنك لم تعرفي الكراهية قبله..

ما أجمل أن تقولي لمن تحبين أكرهك! فللكره لذة أخرى تعكس في آخر المشهد الحقيقة المجنونة للحب العميق..

الآن؛ قفي أمام شرفة الذاكرة، وترصدي القمر البدر بين السحب السوداء وهو يصارع من أجل أن يقول لك: مساءً سعيدًا. اُنظري إلى حبات المطر التي تنزل من عل تقبل وجه الأرض..

لا تدعي المطر يثير دهشتك بل جنونك.. ابكي كما لم تبكي أبدًا، وامسكي وجنتيك، وأغمضي عينيك من القهر الواقف بغرور فوق الآهات، ثم افتحيهما بتوجس.. بخوف من شيء ما تجهلينه، وابحثي في صفحة السماء المملوءة بالفوضى المشابهة إلى حد ما مَا بداخلك عن ذاك القمر الذي يسرق لحظةً من سهو السحابات ليرسل إليك برقية تعاز لأحلامك

المحطمة على مشارف اعتراف أحمق بحب مجنون لحبيب لا يستحق ذرةً من حبر قلم ضائع وسط زحام الكلمات والمشاعر..

فري بجسدك لحظتها، وأضربي عن الطعام وعن الكلام وعن الصراخ المسموع.. أغلقي باب غرفتك بغضب مقرف.. بجنون مبهم.. وأطفئي النور الكهربائي لأنه مزيف كما كل البشر..

ارمي جسدك في أي زاوية فكل الزوايا سيان.. سيحتلك خوف مفاجئ.. لا تجزعي هو منك ومن صنعك.. هو من لب الجنون الأول.. تشبثي بأثوابك، وبتضاريس أرضك، وتعلقي بالجدار كما يتعلق المشرف على الغرق بلوح مكسور وابحثي عن قاطعة التيار الكهربائي.. أشعلي المصباح، ولا تنظري إليه مطلقًا..

أحضري بعدها مباشرةً فنجان قهوة بمرارتها الكاملة من المطبخ بسرعة، وتجاهلي الجميع في رقصة انسحاب جنوني.. أغلقي الباب هذه المرة برفق كي لا تثيري زوبعةً حقيقيةً قد تحطم ما اتفقنا عليه أول المسير..

أشعلي شمعةً، وأطفئي المصباح.. اجلسي أمامها، وأمام القهوة المستعدة للتواطؤ الجنوني معك ضدك لصنع الضياع، والنزيف بحلتهما الكاملة، وانظري إليها مليًّا.. انظري بعمق، وضعي يدك على وجنتك اليسرى وتحسسي بالأخرى قلبك المنفطر حزنًا، والضائع بين مثلث الموت: الحب والكراهية والشك..

اشربي جرعةً من القهوة الملتهبة شوقًا لكسر ما عجزت عن كسره في أرضك مسيرة الألف رحلة لأجل الحب.. قشعريرة ستسري في أعماقك تشعرك بالبرد، والشك الذي يصنع الخوف.. ثم اكتبي!

إن الكلمة النابعة من العمق بين اللحظات الحصرية التي يكتب فيها القلب لأجل نفسه هي الأصدق، وهي الكفيلة بكسر الحصار المربك الذي يحاول قهر القلب وتمزيقه..

×××

تقدمت إلي في هذه اللحظة، وقبلتني بلهفة كانت تصرعني بها، وتوقد كل حرف يشتهي الرقص في حضرتها، ووجدت دافعًا آخر في حضرة الكتابة وأنا أراها تشتهي البوح وأخذ شيء مني لتكتب هي بطريقتها.

كانت تشتهي سماعي كي تقتبس مني، وتصنع بألوانها لوحتها انطلاقًا من تركيبتها وحكايتها مع قدرية الحب؛ التي تجعل الأسود لائقًا بكل الحالات المذهلة مثل هذا الليل الذي يجمعنا..

تنفست بعمق اشتهاءً للحظات تطول وتطول ونحن معًا في محراب البوح، ورحت أكلمها..

– ارحلي معي بين هذه الكلمات وتعلقي بظلالها، ربما تجدين فيها السلوى، وحسن الصحبة..

اُرسمي كما شئت في الوقت الذي شئت، فلا يهم ما إذا كنت تحسنين الرسم، أم لا! اُرسمي بأنفاسك المتعالية في ذاك الصمت المهيب في لحظات الضياع، واصنعي من قرف الصمت الأحمق القداسة التي تجعل اللحظات تدخل إلى أرضك لرسم الزمان تنتظر طويلًا؛ لتعلمك أنك استغرقت زمنًا وأنت تمارسين طقوس العشق المقدس للرسم..

أغمضي عينيك وارحلي إلى عالمك المميز.. إن لم يكن مميزًا فيجب أن تضفي عليه التميز وإلا سيكون حتف مشروعك الأول في رسم اللوحة الأولى بمجرد تحرير الآهة الأولى..

أغمضي عينيك، واصنعي الآتي: ابتسمي، ثم ابتسمي بحرارة أكبر إلى درجة تلزمك إخفاء ابتسامتك بيديك عن أي فضولي يزاحمك اللحظات المميزة.. ألم نتفق منذ البدء على صنع هذه اللحظات مميزةً كعالمنا الخاص؟ نعم؛ بعد ذلك احتضني نفسك بقوة، وابكي بقوة.. إن لم تستطيعي ذرف الدموع فلا بأس بآهة ألم عابر لحدود المدينة..

أنت الآن أمام صورتين لإنسانة تعيش لحظتين صنعت بينهما فارقًا مميزًا.. هذه الخطوط الأولى للوحتين.. الخطوط المفتاحية التي ستبدئين بعدها الرسم بحرية أكبر.. تبني الصورة الأولى للوحة الأولى..

يبقى عليك الآن أن تصنعي فيها التميز في التفاصيل الدقيقة، ثم ضعيها في أي مكان يخطر لك لحظتها.. لن تستطيعي إلا أن تكوني إنسانة اللحظة تلك.. اُنظري إلى السماء حولها وإلى أي متطفل يدخل المشهد.. اُرسمي عصفورين صغيرين ينظران إليك يتبادلان زخمًا من أغاني الربيع، ومن نظرات التتبع لرقصك بين الزهور..

اُرقصي لحظتها كطفلة حتى يصيبك الدوار، ولا تحسبي حساب أحد لأنه عالمك الخاص، ولن يدخله أحد إلا بإذن عقلك الباطني.. إذًا؛ علمي عقلك الباطني أن ينظم مواعيد الزيارات لكل من يريد أن يطوف في رحاب الذاكرة، ويستنشق عبير أنفاسك الطاهرة..

الآن تقريبًا أنت أمام لوحة مكتملة.. أما اللوحة الثانية؛ فارسمي فيها بعض الخطوط الرمادية التي تعبر عن الضياع، واستسلمي للحظات موسيقية حزينة هادئة إلى درجة أنها ستجعلك تبكين رغمًا عنك.. لا بأس بشيء من الضوء في إحدى زوايا اللوحة الذي يعبر عن وجود أمل ولو بشيء محدود؛ يصنع نكهةً أخرى، ويعزز إيمانك بأن الحزن ما هو إلا ابن لحظته

ولا بد من قهره في مسيرة الحياة، ولو لمرات محدودة..

جيد؛ إنجازك الآن يستحق الملاحظة التالية: أنت رسامة متميزة تميز عالمك الخاص.. اجعليه طاهرًا فالطهر تميز!

ستجدين نفسك في خضم الصراعات المريرة التي تخوضينها كلما قلبت صفحات الذاكرة في حاجة إلى منفذ آخر.. ربما يكون الرسم كذلك لكن هذه المرة بالكلمات..

لا تجتهدي، ولا تجهدي نفسك في البحث عنها.. ستصيبك رحلة البحث عنها بالخيبة، فالكلمات – كما خبرتها أنا – تعلمت الخيانة من الوسط الذي يحيط بعوالمنا الخاصة.. ستخونك حتمًا عند كل منعطف ارتباك، وتسخر منك في قمة الإحباط والذهول من ألم المشهد..

اجعليها تأتيك وحدها، واعبثي معها بالطريقة المميزة لرسم اللوحات الأولى.. كلمات أولى تفتتح الصفحة.. كلمات أخرى تصف الحالة.. كلمات تُضَاف إلى سابقتها لإكمال المعنى، وترتيب السياق إلى غاية وضع نقطة توقف.. ودعي نهاية الكلمات مفتوحةً لكي لا تسخر منك عند محاولة البدء معها من جديد..

محاولة فأخرى؛ ستحترفين الرسم بالخيال، والكلام، وتتعلمين العبث بالكلمات التي كثيرًا ما عبثت بك، وسخرت من ذهولك الأول عندما يصفعك الصمت، والكبت..

المشكلة الكبرى هي عندما نكتب ويسخر الآخرون من كتاباتنا في اللحظة التي لا نجد فيها من يستمع إلينا، أو يحسن الاستماع إذا سمح لنفسه المملوءة بالكبر أن يسمعنا.. عندها تضيع الكلمات، وتُلغى مشاريع الرسم، والرقص، والغناء فوق القمم؛ لأنه يصبح عبثًا كل شيء، ولا تصبح

الكتابة الذاتية لأجل الذات إلا جنونًا ومشروعًا انتحاريًّا؛ لأنه عندما نكتب ننتقص من أرواحنا الكثير، فإن لم نجد من يمنحنا البديل نفقد القوة للاستمرار أمام ذبول الكلمات المحررة في اللحظات المملوءة بحماقاتنا، فتصبح مشاعرنا – مع كل نبلها ودفئها في لحظات كهذه – مجرد حماقة، أو هي الحماقة بجملتها..

تنفسي، ونفسي عن نفسك، وروحك بتميز.. وقولي ما تشائين في اللحظة التي تؤمنين أنك بحاجة إلى قول شيء ما.. عن حالة ما.. إلى إنسان ما قد يحسن الاستماع، ويمنحك فرصةً للتحرر من الكبت والسجن الذي تتصورين فيه الخلاص..

لا يُوجد لنا خلاص إلا إذا كافحنا من أجل ذلك، وجابهنا خوفنا الأرعن الذي ما زال يعبث بنا، ويمكن الموت البطيء من السخرية من أرواحنا التائهة، وأجسادنا المرهقة..

ما زال الأمل ما دمنا ننعم بلحظات الحياة العابرة بنا العالم الآخر.. لا بد أن نقيم للأمل دولته، ونزوده بالعدة والعتاد دون خيانات أو مؤامرات لكي ننتصر على أنفسنا وعلى خوفنا، ثم ننتصر في هذه الحياة، ونصنع الفارق المميز، ومعه التميز الذي صنعنا به عوالمنا وأنفسنا منذ البدء..

نقطة توقف.. وللتنفيس عن النفس بقية..

عندما توقف البوح كانت أشعة الشمس تتغلغل بين تفاصيلها، فصارت جنيةً في لحظة من عالم آخر، وتفتت بابتسامة آسرة وقبلة طبعتها على يدها وأرسلتها وهي تختفي..

×××

الفصل الثالث

- ١ -

كل الإناث اللائي مررن من هنا عشن شيئًا من دهشة الاعتراف بالحب ومن حالاته؛ لكنهن لم يصلن درجة الذوبان في روحه، فدائمًا حملت أرواحهن لا قابلية العيش أو الاستمرار، غير أني – لو لم أعلم سلفًا توحده مع هذه التي أخذته مني، وقبلت روحه الحاملة للأضداد؛ هذه التي يستحضرها بنهم الحب الأول – بعد فصلين مكتملين أرى أنه وجد من تحتويه؛ ولو وضعت بعض الارتياب في الحكم كي لا يكون مطلقًا ولا يصدمني اليقين كما أوجعه في انتكاساتك السابقة..

×××

استمر في سرديته عنها وانتقل إلى مرحلة جديدةكانت فيها ترصد تحركاته من انعكاسات صوته في مسامعها؛ تحركات كان يقيدها ويكبحها من الانفلات بكل جنون، وألم وعبث. كان جنونًا أن يتجاهل الحب الذي دخل الغرفة الشخصية دون أن يستأذن، ودون أن يعلم حالته أثناء اللحظة المجنونة..

– كنت عاريًا من كل مقاومة، وكنت أعزلًا من أي موقف قد ألبسه لمواجهة اللحظة؛ فبقيت مذهولًا يومًا بكامله. التقت أقدارنا، وصنعت للزمن نكهةً أخرى لم أكن أشعر بها من قبل، فأحببتها بكل قوة يمكن لرجل أن يحب بها، وأحبتني هي الأخرى. لم أكن أعلم مقدار هذا الشعور اللذيذ الذي لون الحياة بألوان قوس الطيف، لكنه كان رائعًا بالفعل.

لم أكن أعتقد أنه بعد الكم الهائل من الوجع المسكوب حرفًا في روايته الأولى – والذي يلخص امتدادًا موجعًا للهزيمة داخله – أنه سيرفع راية الاستسلام دون مقاومة، فلم أجده يحاول كأي مرة أن يستهلك طاقةً في المقاومة. قاطعني وأنا أصور بعض ذاكرته قائلًا:

– الطاقة أحتاجها لأستمر، والحب مفاعل قوي لرفع رصيدي منها كي أكون بجاهزية أفضل لاجتثاث رواسب الحزن القديم.

ذاك المساء لم يدخر جهدًا أن يرسم اسمها وكلمات اعتراف على نصف ورقة بيضاء ما زال يحتفظ بها إلى الآن، وقد كتب فيها: مرحبًا بك في مدينتي! أحيانًا تلخص جملة عابرة الكثير من المشاعر والكثير من الاعترافات..

– في الحقيقة لم أجد الكثير من الكلمات لحظتها، ولم أكن جاهزًا للبوح أكثر، ولكن اكتفيت بالجملة الوحيدة التي رافقتها وردة حمراء استحضرت عطرها في ذاكرتي. ربما لم تكن لدي الشجاعة الكافية لأمنحها ذاك الاعتراف الممزوج بالرغبة في الصراخ عاليًّا أني أحبها.

عندما أشرقت الشمس كليًّا بعد ليلة حافلة بالبوح كان عليه الخروج إلى العالم ككل بصورة جديدة، ونفسية جديدة، كي يكون متناغمًا مع المعطيات الجديدة.

كان يزيح كل مرة سؤالًا فضوليًّا: كيف ستأتيها اليوم؟ وكيف يكون لقاؤكما لأول مرة تؤمن فيه بحبك لها؟ كان يرى أحيانًا أفضلية ترك الأمور تسير على فطرتها.

– لقد أحببتها، وبمرور الأيام كان تعلقي بها يصنع سعادتي.

لكنه كان على غير العادة حذرًا من هذا الحب. لم يشك بها يومًا، ولم يشكك في مشاعرها! هل أحبته هي؟ ربما! لماذا هذه الاحتمالية؟ فقط وضعها لأنه لم يكن يستطيع أن يجزم بما يبطنه الآخر حقيقةً بحكم الماضي الثقيل بالوجع!

×××

– ما زلت أذكر صورتك الأولى في لقائنا المجنون تحت المطر.. ما زلت أذكرك جيدًا.. ما زال طيفك الأول يرقص في ذاكرتي كلما تنفست بعمق، رغم كل المقاومات القديمة.. كنت مربكًا أمام شكوكي بالمقاومة الأخرى التي كنت تفرضينها أمام ما تكنين لأجلي من مشاعر.. ارتباك وضعت له نهايةً..

أما زلت تذكرين رحلتنا الأولى مع الجنون ذاك المساء؟ أما زلت تذكرين وقوفي الشامخ تحت المطر؟ كان طقسًا من طقوس الحب أن أتطهر.. قررت يومها أنه لا بد لي قبل أن أتنفس عطرك أن أتطهر.. كان المطر يغسلني من بقايا حزني القديم، وكان يغسلني من خوفي القديم..

تبللت يومها مدينتي وتبللت معها عروقي، وغسلني المطر كما لم يفعل من قبل.. انتظرت لقاءك يومها بمزيد من الشوق، والجنون، والاحتراق.. وأتيت بكل دفء.. لم تقتصدي لأي لحظة شيئًا، لأن الدفء الذي يسكنك يتجدد..

نظرت إلي تتلمسين تضاريس وجهي المنبهر بك.. ابتسمت بعمق، وبكيت بعمق في اللحظة المجنونة نفسها، وارتميت بين ذراعي.. كان جسدي يرتجف، ويداي تمتدان بخوف.. ضممتك بعنف، وسألتك.. ربما لم أسألك تحديدًا بجملة واضحة.. كانت عيناي ترسمان سؤالي المبهم، سؤال قرأته

عيناك على عجل، وأجبتني: حبيبي، أنا سعيدة بك..

وكأني بالنص الأول الذي تحدثت فيه عن لقائه بحبيبته تحت المطر كان يقصدها هي، وكان يستحضرها هي، وها هو يلمح لها بشيء مما سكن روحه من حبها، وذاك الانتماء إليها..

في لحظة صمت عقبت ذاك البوح كسرت صمته، وراحت تستفز الكثير من مكنوناته..

– أجدك جريئًا في لحظات إلهامك وكتاباتك أكثر من حالاتك العادية!

– عندما تحرجني اللحظات مع الأنثى تنصفني الفصحى وتظهر التميز الموجود في أرضي. قد لا أبدو شريكًا مناسبًا لكني محاور يشد الانتباه واشتهاء الكلام.

– أود أن أسمع بوحك أكثر..

– كوني فراشتي التي أستمد من ألوانها فكرة لوحتي الخالدة..

كوني زهرتي التي أستنشق من عبيرها بلسمًا لجراحي؛ لتصبح في حضرتك قصةً بائدةً..

كوني شمسي وأذيبي أحزاني، ودفئي أيامي..

كوني قمري الذي يبهرني بلونه واستدارته الكاملة..

كوني نسمة الصباح التي تنعش يومي..

كوني نسمة المساء التي تريحني..

كوني نجمةً استثنائيةً أعرف مستقرها في السماء وحدي وأهيم بعشقها وحدي..

كوني السحب الممطرة بالحب على أرضي..

كوني شمسي الدافئة التي تشتاق لها مسامات جلدي..

كوني سمائي التي أحلق فيها بشعري..

كوني عصفورتي التي تطرب قلبي..

كوني أوراق شجرتي التي تلغي عراء أغصاني..

كوني حبيبتي..

– تكتب للحب بطاقة غريبة! هل تعيش حالة حب؟

حكايات القلب كانت كتابًا مفتوحًا لها منذ لقاءاتهما الأولى. والآن؛ بسؤالها جعلته يشم رائحة مطب غير بريء تريد بصنعه الإيقاع به في دائرة اعتراف مباشر..

كان تردده وانقطاعات أنفاسه لا مبرر لها، ولا تقدم البيان الكافي والرد الشافي لسؤالها الذي أعادت صياغته مرتين استنفذت طاقته في المراوغة، وهو منذ البدء كانت تتقد داخله رغبة في الاعتراف..

– أنت.

– أنا؟ ماذا؟ ماذا تقصد؟

– أنت من أكتب لها بهذا الزخم الهائل من العاطفة.

استأذنت منه لأجل الغياب، وما كان غيابًا.. لقد كان صمتًا تعد فيه الدقائق.. عندما دقت الساعة منتصف الليل سمع صوتها يقتحمه اقتحامًا: «كل عام وأنت بخير.. عيد ميلاد سعيد يا حبيب قلبي»..

أذهلته وأدهشتني بما صنعت.. كأنها تؤرخ لميلاد آخر له وللذاكرة وللآتي.. فاجأتني حد الدهشة، وفاجأته.. لم يعتقد أن الحب من الممكن

أن ينبعث من عتمة الليل الموحشة، ويجعل شمس القلب تشرق رغم أنف الذاكرة المعطوبة؛ لتجعل الأبيض ينتصر بعد حيازة الأسود المساحات الشاسعة للصورة في زمن تضاءل فيه الأبيض حدًّا شابه العدم..

×××

في لحظات فارقة في العمر انتابتني حالة غريبة من الرقص. كل شيء في الأنا كان يرقص: المشاعر والنبضات والكلمات والهمسات وكل ذرات الجسد.. راقصتها ساعةً بأكملها، فكانت تدور بين ذراعي، وتكون أقرب مني أكثر في بعض فصول رقصنا، وكلما حاولت أن أضمها إلي تفر مني، فتتعثر خطواتي، وتلامس ركبتي الأرض.. هي تعرف أني أرتبك كثيرًا في مواقف مثل هذه..

في لحظة إحساسها برعشة في أنفاسي تتقدم إلي لتساعدني على الوقوف لنمشي خطوات سريعة، نتوقف بعدها؛ ثم نعاود الفكرة في الاتجاه المعاكس، ثم أجعلها تلتف تحت ذراعي، وخلال دورات سريعة تنفلت الأيدي فأخطو خطوةً أخرى لإمساكها من خصرها ودفعها نحو جسدي، ثم ندور، وندور، وندور..

ألوان خافتة وخطوات متباطئة، ثم؛ تشتعل مزيد من الأضواء كما تشتعل المشاعر.. تحت خصرها حكاية عشق، وفي مسكة يدها فصل لذيذ من الوصال.. نستمر في الدوران حول أنفسنا كأننا نرقص رقصةً كلاسيكيةً خالدةً على نغمات الطبيعة..

رأيت الكلمات – في حضرتها هي الأخرى – ترقص فوق حبات المطر، وتنزل فوق التراب فتزهر حدائق شعر..

عندما بدأت الكلمات عزفها على أوتار القلب كانت الشموع تشتعل واحدةً تلوى الأخرى، والمكان الشاحب يصبح أكثر توهجًا يغسل وجهه من الظلمات، وذاك الصدى الساكن بدأت تستفزه قطرات المطر التي ترسم لوحتها على زجاج النافذة المعتم بالغبار المتراكم..

رحت أرسم بأصابعي اسمها على الزجاج متتبعًا همس المطر..

×××

- ٢ -

كان اعترافها بالحب أجمل هدية عيد ميلاد، لذلك اتخذت من يوم ميلادي عطلةً رسميةً مدفوعة الأجر، وخصصت اليوم شطرين واحد لي والثاني لأمي التي احتفلت بميلادي أيضًا بطريقتها..

قدمت لي أمي (الرفيس التونسي) كتحلية لمساء يوم متخم بالأحداث والتغيرات والانطلاقات الجديدة.. سألتني عن سر ذاك الوهج في وجهي وتلك الرعشة في الشفاه الخجولة من بدء الحديث..

– أمي.

– أي بني؛ قل ما عندك.

– أمي؛ لي أمنية وكأني بها تتحقق! ولكن أخشى العقبات التي تفصل بيننا؟

– دعك من العقبات الآن وقل لي من تكون؟

– جنا، 23 سنة، من مصر ...

– من مصر؟ مرةً واحدةً؟

– نعم..

– وهل قررت العيش معها هناك، أم تأتي بها إلى هنا؟

– هناك.. إلى حين لا أعلم موعده.

بعد فترة من الكلام المسترسل عنها – أحكي فيها عنها تفصيلًا وتخصيصًا وتعميمًا كي تتلقى القادم بأقل الصدمات – استوقفت دهشة أمي بسؤال..

– ما رأيك؟

– تبدو مناسبةً لك وإن لم أعرفها!

– أمي ...

– نعم؛ ما هنالك؟

– جنا كفيفة.

– كيف؟

– لا ترى مطلقًا.

وضعت يدها على فمها بين الصدمة والدهشة، واختلطت مقدمات ما قلته وهذا الخبر الدقيق في عتمة حزن مداهم..

– أبعد هذا الصبر وهذه السنين ترحل عنا وتتزوج كفيفةً؟

– رحيلي قدر، وكف بصرها قدر. اعتبريها ابنتك وأنا المسافر لأجلها أخطبها منك.. ما تحلمين لابنتك؟

– أريدها كما تشتهي أي أم لابنتها من النجاح والسعادة.

– ما قولك وهي ابنتك وأنا خاطبها؟

– سأوافق طبعًا.

–إذًا؛ باركي لي هذا الاختيار.

– طبعًا بني.. لكن؛ لا تخبر أحدًا بكف بصرها حتى تسافر إليها وتراها.. زن الأمور هناك بمنطق لا عاطفة وقرر، ثم أخبر أباك.. إن عرف والدك بالأمر قبل سفرك عمل كل شيء لمنعك واعتراض طريقك نحوها..

×××

عندما جمعتنا طاولة العشاء بعد مدة من الاغتراب.. قدمت الهاتف

لأمي كي تكلم جنا لما اتصلت بي.. كسرت شيئًا من فرحي تلك الاستنكارات في ملامح أبي؛ والتي صنعت جبل استحالات أمام سحب أمل تريد أن تخترق الحائل بين مسارها ومدينتي.. بعد الانتهاء من المكالمة انفجر صمته غضبًا، وصار ذاك السواد يدًا تصفع تلك الابتسامات التي سكنتني عشرين ساعةً..

– أنت تلقي بنفسك إلى التهلكة.. تريد السفر إلى مصر التي تحترق ونيرانها تتسع وتتسع، وبعض أبنائها يفرون منها وأنت تريد السكن وسط النار.. تسافر هناك وأنت لا تعرف كيف تتدبر ثوبًا جديدًا للعيد القادم.. لن أبكيك إن أهلكت نفسك فلن تكون تعنيني يومها..

– أبي؛ الموت حق علينا هنا أو هناك، ولست ملق بنفسي إلى المهالك، وأما عن الرزق فلنا رب يتدبر ما نعجز عنه..

– لا أريد أن أسمعك..

×××

«كعادتك يا أبي! كعادتك! شكرًا لك.. شكرًا جزيلًا»: جملة أغلق بها الحوار وهو يتوارى من أمام ناظريه جريح حرفه، وانعزل ساعتين في غرفته تائه الفكر والأماني.

كان البرد آسرًا للمكان، لكن؛ كان يحس بدغدغات دافئة لأول مرة في ليلته. امتزج الصمت بموسيقى المطر ودغدغات أبخرة الأرض التي حركت مشاعره، فبكت عيناه بشكل يشبه المطر. رغم الأبعاد التي من الممكن أن تأخذه إليها الدموع من تفاسير وتأويلات، إلا أنها تبقى عنوان مقطوعة اسمها قلب ينبض!

استمرت مداعبة المطر للمرايا. توقف رسمه لاسمها على نافذة شوقه، واستمر إيقاع المطر. احتضن نفسه، ثم فعل بشدة، وأجهش بالبكاء بلحن داخلي مكبوت.

خرج إلى الشارع يسير تحت المطر. كان المشهد مثيرًا جدًّا له لدرجة أنه بدأ يفكر في تغيير المفاهيم وبعض الألوان في لوحة المدينة: في الواجهة والتفاصيل الداخلية، لأنها ألوان مرتبطة بوجع يريد نفيه.

أتت نسمات من الريح تركت المطر كأنه يرقص على مقطوعة نادرة تحتوي دفئًا متعاليًا.. تشتعل باقة من الشموع.. تبدأ معالم المكان بالاتضاح أكثر.. حرارة الأرض المنبعثة ترتفع داعيته لرفع يده نحو خده لمحو آثار الدموع.. يندفع أكثر تحت المطر.. يركض ويدور حول نفسه يفتح ذراعيه.. يرقص.. تنبعث حالة داخله تشبه الحلم الذي كأنه يعرفه أول مرة؛ فيجاريه بخوف وارتباك في توقفاته وفواصل نبضه المتصارعة..

يقع على ركبتيه.. يبكي هذه المرة بصوت مسموع.. بصوت أقوى قد تجاوز هاجس خوف سماع صوت الحزن داخله.. يرفع رأسه ليغتسل بالمطر الذي غير سرعته بتوافقية مع المستجد في مدينته المنتفضة بعد سنوات ظلامية..

«ليتهم يعلمون كم للمطر من طاقة في غسل دواخلنا!» ... «ليتهم يغتسلون من استفهاماتهم القاتلة واستنكاراتهم الموجعة!» ... «ليتهم يلغون هذه الفواصل التي تزيد اتساعًا، وتزيدني اغترابًا!» ...

بعد مساحة زمنية من الجنون والبوح والاغتسال بالمطر عاد إلى غرفته الكئيبة لينام ...

×××

– ٣ –

سِيق بي إلى قاعة مزدحمة بالوجوه الشاحبة، وزُجَّ بي بين أربعة من الجدران الخشبية، وعلى رأسي وجه شاحب يرصدني، ونظرات مقززة تنعتني بما لذ لهم وطاب من النعوت المثيرة للسخط.

محكمة!

دخل اثنان من أصحاب الرؤوس المدورة والبطون الكبيرة والوجوه الصفراء.

– أنت موصوف بالكراهية والعصيان، ومتهم بالعقوق.. ما أقوالك؟

– سيدي الرئيس، السيد وكيل الجمهورية ممثل النيابة، اسمحوا لي أن أوضح التالي ...

أسمى علاقات الحب البشرية بين الأحياء علاقة الأم بابنها.. حب فطري يبدأ بأول نفس وبأول إحساس بالوجود.. إحساس غير واع لكنه موجود وفي نماء.

لكن؛ أكبر عقبة هي أننا نخرج إلى الحياة في وقت يثير استهجان أوليائنا: ما الذي أخرجكم؟ أو ما الذي أتى بكم في هذا الحين؟ هذا الاستهجان هو الذي يصنع الكثير من أحزاننا فيما بعد، ويخط الكثير من انكساراتنا وضياعنا الأبدي..

إن الحياة التي نخرج إليها، والمليئة بالأنوار والصخب والوجوه الشاحبة نتخيلها مكافأةً لنا على حسن إقامتنا الجنينية، وامتيازًا بشريًّا ... لكن؛ هذا الخروج يشابه هبوط أبوينا من جنتهما.. نحن نهبط من جنة كنا

نتغذى فيها دون كثير عناء، وننعم فيها بدفء لا محدود ... لكن؛ الشيء الوحيد الذي ينغص إقامتنا هو زيادة أحجامنا..

زيادة تصبح محرجةً لأمهاتنا معيقةً لاستمراريتهن بالشكل العادي.. فتبدأ رحلة الهبوط ورحلة العذاب بأول صرخة وتنفس للهواء المعكر بالصراعات والمطبات.. وأول ما يصفع وجوهنا نظرة تحمل سؤالًا يبدو تافهًا لكثيرين، لكنه مؤلم لنا ونحن أبناء الأسابيع الأولى: لماذا؟ نعم. لماذا قدمتم تزاحموننا في الحياة؟

سؤال سيستهجنه كثير من الآباء لو وُوجهوا به.. ولكن الحقيقة هي استهجانهم لوجودنا.. إنه الرفض الضمني الذي نتلمسه من وجوههم الشاحبة ونظراتهم الجافة وأيديهم الباردة وصراخهم عند تبولنا وتبرزنا وصراخنا..

لا يفهمون أن أول لغة نستعملها هي اللغة الأولى لجميعنا والمتكونة من أشياء رئيسية: ابتسام يعبر عن الرضا والتفاعل، وبكاء يعبر عن حاجة، وصراخ يعبر عن رفض، وهدوء يعكس قناعةً.. ذاك الرفض – بألوانه – نلمسه يومًا بعد يوم، ونسمع ونفهم دون وعي أننا مرفوضون كليًّا أو جزئيًّا..

الرفض الكلي مصيبة لا أكبر منها، والرفض الجزئي يكون لميعادنا أو جنسنا أو صفاتنا.. يا من كنتم سببًا في وجودنا اعلموا أننا زرعكم الذي زرعتم.. يا من زرعتمونا سلفًا أنى لكم أن ترفضونا؟

ألمن يزرع قمحًا أن ينتظر إلا قمحًا؟ نحن ثمرة بذركم في أرض لكم سقيتموها بمائكم وسمادكم.. وسلطتم عليها فصولكم وهواءكم ... لا ترفضونا.. نحن صنيعكم.. توقفوا.. ألم تأتوا كما أتينا؟ أم أنكم تفعلون ما

فعل آباؤكم الأولون؟

إن مصيبتنا هي أننا مرفوضون ثم مزدرون ثم موصوفون بالجهل المطبق وعدم الوعي.. وتصنعون ما تصنعون في يومكم كأننا لا نعي شيئًا، ولا نبغي غير شيء من حليب أمهاتنا، وشيئًا من التطهر من أدراننا.. لا.. نحن نرفض تجاهلكم لنا، ونرفض جوكم المعكر المليء بالحروب والفوضى والصخب والوجوه الشاحبة..

أنتم تخطفوننا عند حملكم لنا، وترموننا عند وضعكم لنا، وتتجاهلوننا وتتذمرون منا، وتصرخون في وجوهنا أن كفانا طلبًا وكفانا قرفًا.. ألم تطلبوا الحياة مثلنا؟ ألم تكونوا قذرين مثلنا؟ لماذا تتذمرون منا، وتتهموننا بالجشع والأنانية وأننا مزعجون لا مبالون براحتكم وحاجاتكم؟ لماذا تصرخون في وجوهنا، وتصفعوننا بأعينكم وبأيديكم وبقلوبكم؟

نعم؛ عندما تخلو قلوبكم من الرحمة تكون الصفعة وراء الصفعة، و(الرفسة) وراء الركلة.. وتكون الهزيمة والضياع والنزيف.. لماذا تريدون أن تتحكموا بنا (بالريموت كونترول).. ننام كما تريدون.. نطلب الحياة كما تريدون.. نتبرز في المرحاض مرةً واحدةً في اليوم بعد استئذان واعتذار عن جرمنا كما تريدون، ونلعب كما تريدون، ونأكل كما تريدون متى تريدون، والكم الذي تريدون.. تريدون.. تريدون..

تريدون جيلًا محطم الكيان والإرادة لا يمشي إلا بالأوامر، ولا يعبر إلا عن حاجة سيده، ولا يمشي إلا بمنطقه، ولا يحقق إلا ما عجز عن تحقيقه، ثم؛ تتأففون، وتتهموننا بأننا جيل فاشل بلا إرادة وبلا وعي وبلا ضمير..

تعيشوننا في غضب وراء غضب.. في صراع الديكة وصراع الثيران..

في مساحة أشبه بالسجن مملوءةً بالماء والنار والرماد والبراكين والزلازل والقذارات.. حروب تصفونها بمشاغل اليوم، ونعرفها بزلازل اليوم؛ ونحن نرضع أصابعنا ونعي أننا مرفوضون، ومتروكون لأمواج اليوم تتقاذفنا..

فإن تذمرنا يومًا أو ثرنا أو أجرمنا تتذمرون، وتصرخون: هؤلاء بلا أخلاق.. بلا ضمير.. هؤلاء قوم مجرمون.. منكرون.. متى كنا بأخلاق وضمير؟ وأين كنتم ونحن ننمو ونكبر بلا أخلاق وبلا ضمير؟ أم أنكم تعيدون مواويلكم القديمة وشعاراتكم العفنة.. (المُتْرَبي مِنْ عَنْدْ رَبي)[1]..

هل شهدتم في الناس أن الناس العاديين يُولَدون بالوعي الكامل مزودين بقائمة من الأخلاق ومعززين بضمير لا تحطمه أعاصير السنوات.. نحن نُولد كقشة في مهب الريح.. كأوراق بيضاءَ ملطخة بنقاط سوداء تُتَرجم في أنانية غريزية، وفي استعداد فطري للجريمة عندما نحس أننا مهددون بالترك جانبًا..

ضف إلى أنه ونحن صغار نحب أن يكون كل شيء لنا: الأم والأب، واللعب، وكل الأشياء المحيطة بنا.. ونحب العبث بكل ما نصادفه كي نشبع غرائزنا دون وعي بالخطر المحيط..

هذه الأمور وأخرى مما تجهلون وتتجاهلون وتحتقرون هي التي تحدد من نكون.. سويين طيبين طاهرين، أو أنانيين متغطرسين مجرمين معتدين بالذات وجانحين للسيطرة والاعتلاء، أو محطمين مهزومين صورًا لأشباح أليفة مرئيين مئةً بالمئة.. إن كان في احتجاجنا عقوق فنحن ضحاياه سلفًا.. لكل هذا ولغيره ألتمس من هيئة المحكمة الموقرة البراءة..

×××

١- تعني الجملة أن التربية مسألة قدرية، فإما يأتي الولد متأدبًا أو لا.

كانت ليلةً عنوانها الوجع ملونةً باستفهامات طويلة وعريضة وممتدة عبر تسع وعشرين سنة مضت ... استيقظت الساعة الثامنة صباحًا أصرخ بقوة، وأصرخ كلما توقفت.. كانت أمي في الطابق الأول وكانت غرفتي في الطابق الأرضي..

كانت تسرع لترى ما بي.. كنت أفر فزعًا من غرفتي أصطدم بالباب والحائط مغمض العينين لأسقط بعد محاولتي صعود السلم لتخطفني إلى صدرها.. كانت تحتضنني بقوة مشاعرها وقوة خوفها.. لم تكن تفهم ما بي، ولم تفهم ما حصل يومها لحد الآن..

عدت إلى غرفتي لأنام ما يزيد عن أربع ساعات لأنسحب إلى عالمي: عمل بالنهار ووحدة بالليل إلا من حضورها الذي تشوبه بعض الأيام الفاصلة بشكل موجع..

×××

– ٤ –

الثامن مارس؛ بعد الاعتراف بحب جنا، ورغبتي في الارتباط بها عارض أبي معارضةً شديدةً وآذاني بكلام جارح، فاعتبرني عشوائي الفكر وحتى مجنونًا بعد قراري السفر إلى مصر في أشد أيامها اضطرابًا وعنفًا وقتلًا، أما أمي فقد أخفت عنهم كف بصرها لتخفف حدة الرفض وحدة التجريح.

صارحت جنا برفض والدي فكرة السفر خوفًا لا رفضًا لها، وأبعدت كل فكرة تجعل من ارتباطنا مستحيلًا؛ ونحن المتفقان رأسًا أن لا زواج دون رضا الأهل لأنه ليس زواج اثنين بل رابطةً بين أسرتين.

هذا الرفض كان يعكر صفوي وينقص بريق حضوري. لم ينقذ بعضًا مني إلا مصدر دخل إضافي بعد حصولي على عقد عمل في البلدية، وبمجرد إمضاء العقد قررت أن يكون المرتب خالصًا كليًّا لسفري إليها، ومداخيل تسيير محل الانترنت تغطي مصاريفي الشخصية.

×××

كانت تود أن يكون سفري أكثر راحةً وأقل تعقيدًا لكن أفكارها كانت تسقط أمام المشهد المُعَاش والطرق المسدودة ..

في يوم قررت أن أفعل فيه شيئًا وهو الانتقال إلى العاصمة إلى السفارة المصرية للاستعلام عن كل الاحتمالات والظروف. صادف هذا اليوم مرضي بنوبة برد، ونوبات البرد معي مرهقة جدًّا بحجم بعض أحزاني، لكنه بالنسبة لي كان أول أيام التحدي، فلم أرد أن أتراجع بسبب مرضي، وتحاملت على نفسي وسافرت.. كان سفرًا مرهقًا جدًّا..

حدثتها يوم الجمعة أن ذهابي إلى العاصمة سيكون يوم الاثنين لكن آخر السبت كان يحمل في طياته ما يعكر صوفي بمجرد طلوع شمس الأحد. كانت قد علمت أني أمر بوعكة، وأحست من صوتي المبحوح والسعال الشديد الذي كان يقطع حديثنا أن السفر سيُؤَجل لا محالة.. لكن؛ في مساء الاثنين اتصلت بها وأخبرتها أني في منزل عم لي في العاصمة..

ذُهِلت إلى حد عجزت عن وصف دهشتها حين علمت أني كنت أكاد أسقط من الدوار على الأرض، ولكني قاومت وجازفت بالرصيد الضئيل من المقاومة، وحققت هدفي وأنجزت وعدي..

السفر إلى مصر سياحةً كان يحتاج قرارًا وفقط. راجعتها في مواعيد عملها وارتباطاتها والفترة المناسبة للقاء الأول؛ فكان اختيارنا سبتمبر، وكان اختيارنا للسادس والعشرين منه، وكانت الساعة الثالثة عصر ذاك اليوم تحمل جنين شوقنا..

رغم أن المسافات عن هذا الموعد تقارب الخمسة أشهر إلا أنها كانت تهون أم إرادتنا الموحدة.. درست الفكرة بالمنطق وعلى الورق.. كانت ترى في كلامي الاندفاع وكنت أرى فيه شيئًا من اليقين..

كانت تسألني مرارًا من أين أستمد هذه الحماسة وهذا الإصرار وهذه الشجاعة؟ من أين أستمد هذه الثقة بها وبالحكاية؟ أمي كانت تشاركها السؤال: من أين لك بهذه الثقة؟

لم يكن تعارفنا عبثًا، بل كان قدرًا، ولا بد أن يجمعنا القدر كما جمعنا أول مرة!

×××

اليوم الثامن عشر من رمضان العام ألفين وأحد عشر كان يوم إيداعي ملف السفر سياحةً إلى مصر، وبعد تسعة أيام اتصلت بالسفارة لتبلغني الموظفة هناك أن التأشيرة جاهزة، وكان الخبر يوم التاسع والعشرين من رمضان.. كان يومًا سعيدًا جدًّا، وتعيسًا جدًّا، مبهجًا متعبًا بكل التناقضات في لحظات واحدة..

عندما جمعتنا لحظة الإفطار كنت أتعطر بالفرحة الظاهرة في كل شيء: في جلستي.. في استمتاعي بانتظار لحظة الآذان.. في صب اللبن في كوبي وفي اختيار ثلاث تمرات.. في ابتلاع القطرات الأولى للبن الذي بلل عروقي بعد صيام متعب حرارةً وممتع أجواءً وانتظارًا..

– أفرحنا بما أنت به فرح كي يصير الإفطار بنكهة الفرح!

– (الفيزا) جاهزة!

لم أكمل لقمتين حتى أتتني صفعة في وجه قلبي، حيث ثار أبي في وجهي وأوقف امتداد يدي نحو الأكل، وأوقف لساني عن الكلام، وأوقف مشاعري عن الدهشة في لحظة دهشة أخرى، وأوقف الدموع في لحظات بكاء والصراخ في لحظة غضب، وشل كل شيء داخلي..

وضعت الملعقة وقمت بهدوء، ثم قلت له: شكرًا كثيرًا أبي!

وخرجت بركانًا من وجع وبركانًا من غضب وبركانًا من دموع تتفجر في شراييني دون أن تخرج أبخرة ذاك الزخم من الفوضى..

سهرت مع حبيبتي إلى وقت متأخر أشكو إليها وجعي، ونمت على نغمات صوتها تاركًا برنامج (السكايب) متصلًا. لم تنقطع المكالمة؛ فكانت أنفاسها تتردد في أذني عند لحظة صحو فجائية؛ ثم أنام مجددًا بعد ابتسامة حب دافئة..

عند الساعة العاشرة صباحًا وجدتها تكلمني وتوقظني..

– حبيبي استيقظ، لمَ لَمْ تصل صلاة العيد وتعد إلى أهلك؟

– لا أريد أن أرى أحَدًا!

– لا تقل هذا! هم أهلك، وهذا يوم للتسامح وتجديد الروابط والصلات!

– أعرف؛ لكني موجوع حد الخوف من اللقاء..

– حبيبي؛ استجمع قواك وصبرك وعدني أن تذهب إليهم.

– لأجل عينيك حبيبتي سأفعل.

في البيت افتقدوني وافتقدوا وجودي في غياب مبهم. كان عمي وزوجته يسألان عني، فأعلمتهم أمي بكامل الحكاية، فاندفع العم مخاطبًا أبي.

– دعه يتحمل مسؤولية حياته وقراره.

– هو لا يعرف ما هو مقدم عليه.

– الحياة لا تُعَاش بمقاس واحد ولا تُرَى من منظور واحد.

عدت إلى البيت صامتًا لا أقوى على قول كلمة.. سلمت على الجميع بكلمات مختصرة، وبابتسامة باهتة بلون اللقاء المتخم بالأسئلة الموقوفة والمشاعر العالقة بين الحب والكراهية وبين الأنا وانتمائها، وخرجت – بعد ذلك– لزيارة صديق كي أتحرر من ذاك الصمت الذي أعجزني عن قول شيء..

أثناء مكالمة هاتفية تظاهرت بأني لا أعرف أن أبي يستمع إلي، ورحت أناقش صديقي في كل الاحتمالات الموجودة في ذهن والدي.. كنت أقرأ

أفكاره وأرد عليها فكرةً فكرةً، وعبرت في المكالمة أني واع جدًّا بما أنا مقدم عليه، مما جعل أبي يرى إصراري وثقتي فخفتت حدة صوته في حديث قصير حدث بيننا على عجالة..

– أبي أريد رأيك.

– عش حياتك.

– لا؛ ليس هذا ما أرغب فيه.

– أنا راضٍ باختيارك.

– متأكد؟ أم هي مجاملة؟

– متأكد.

قبلت رأسه وانصرفت خارجًا.. كان خبرًا سعيدًا، لكن في الضفة الأخرى شكوك والدها كانت ترهقها.. كنت أحدثها عن شكوكه، أقرأ أفكاره هو الآخر، وأبوح لها بما قاله دون أن تقوله لي؛ وكأنه حدثني بها تفصيلًا.. كانت تنقل له كلامي حرفيًّا إلى مسامعه ومسامع والدتها التي بدأت تميل إلى قضيتنا وتساندها..

×××

— ٥ —

حبيبتي؛ تليق بك أجمل القصائد والأحاديث، وتليق بك حجوز كل الرحلات إلى القمر، فلا يسافر إليه إلا أنا وأنت. لمن قال أني لا أحبك هذه مرافعتي في وجه التاريخ ووجه المشككين في القضية..

اسألي الندى الذي عانق شِعري في صباحات الحب، واسألي وهج الشمس الذي تدفأ في حناياه نبضي، واسألي نجوم السماء كم مرةً أذكرك في يومي وليلي وبين ثنايا أحلامي..

اسألي نبضي وأنفاسي فهي الأقدر على إعطائك النتيجة بدقة. يا من سكنت النبض بكل تفاصيل الحكاية؛ هذا بوحي لك، وصرخةً في وجه كل المشككين في مصداقية القضية..

كيف لي بعد كل هذا الحب أن أحب غيرك وقد استنفذت إمكانية حب أخرى، وألغيت كل المخططات التي كنت أدخرها حالة فشل عاطفي للمرور إلى تجربة أخرى أبحث فيها عن السلام؟

اليوم أعلن تأكيدًا لكل ما سبق لي أن قلته: أنت آخر حبيباتي، وأروع حبيباتي، وبمقتضى الميثاق المُمْضَى بنبضنا؛ ولا سيما المواد الأولى بكل حيثياتها وبكل تفاصيلها فإن حبي مُؤَسس على الصدق المطلق كما هو حبك بالمثل، ويتعين على أساس بنود الاتفاق الإقرار التاريخي بهذا الحب، وتدوينه في معجم الحب العفيف، وعليه يتعين تركنا بسلام وعدم التعرض لقلبينا فلا مفرق بينهما إلا قدر في مشيئة الله غير مشيئتنا، ولا مفرق بيننا إلا موت محتم، وللتاريخ الكلمة الأخيرة التي ستبين لهم مصداقية القضية.

كتبت لها هذا الرسالة بعد حالات من التشكيك من مقربيها وتخويفها

من هذه التجربة وهذه العلاقة التي كانوا يرونها إما جنونًا أو كذبةً..

بعد تنفسها العميق أتتني في ليلة حالمة بعد منتصف الليل، في ظلمة بلون البن الرفيع الممزوج بماء المطر. وبينما أنا في طريق وردي في مملكة الحلم – في حالة كنت أحتضن فيها جسدي المرتعش، وأمشي بجنوني تحت مطر أستلهمه وأستحضره في اللحظات لأرسم تفاصيلها بعطور الذاكرة الخالدة – راحت تفتحت ستائر الظلمة الفاصلة بيننا لأراها عبر مرآة اللحظة الجامعة لنا..

عينان بريئتان حالمتان آسر وهجهما وبريقهما، وانعكاس ماء الحب والحياة فيهما يشدني إلى سفر في تفاصيلهما إلى أقصى نقطة من الممكن والمستحيل..

وفي لحظة ابتسامها قلت في مدونة الذاكرة: كم هي لذيذة تلك الرحلات والمواعيد والطقوس التي تنتظرني، وكم جميل أن أبقى منبهرًا بذاك الشعاع المعزز بالطاقة والأمل الذي يرسله بؤبؤا عينيك، وذاك الحلم المنعكس في المرايا، وتلك الطفلة البريئة اللذيذة التي تسكنك.

عندما يجتاحني حزني دعيني أسافر بدون مواعيد مسبقة في ذاك المدى الشاسع الذي يصنعه ذاك الوهج غير الاعتيادي في عيني أنثى هي أنثاي أنا.. هي حبيبتي أنا..

في حالات ما دعي الوجع دمعةً تنسكب على وجنتيك.. لا تكتميه، ولا تقيمي له دولةً ولا وطنًا فيك، ودعيه يضمحل كلهب شمعة في لحظة آهة..

دعيه قطرة ماء تنسكب على تلك الوجنتين وامنحيني شرف لمسهما بدفئي. اُنظري إلي ويداي تلمسان بقدسية الحب شيئًا منك، ودعيني أجدد

حينها انبهاري بعينيك وأنا ألمس تفاصيل وجهك غاليتي..

دعيني أسافر بجنون بين ضفتي حلم بينهما مواعيد مع أعذب الكلمات التي ما زالت أنتظر انفلاتها في موعد سرابي الألوان لا يتكرر إلا في عالمنا أنا وأنت..

تفاصيل حلم وقصة وعالم بأكمله تصنعه تلك الشفاه عسلية اللحن والمزاج وتحمل بين ثناياها دوافع سكري وجنوني..

ضعي رأسك على صدري بكل ثقل الذاكرة والأنا، وارتمي بين أحضاني وتتبعي تفاصيل لحن القلب النابض بحبك، ودعيني أمرر يدي على خصلات شعرك الذي اقتبس الليل سواده منها كي يكون مبهرًا مثلك وسكنًا يا سكن قلبي وحبي..

×××

– ٦ –

في رحلتي إلى العاصمة لاستكمال إجراءات السفر كان لي موعد مع البحر الذي طالما أخذ من وقتي الكثير، وأسال من حبر الحكايات الكثير. لكن؛ هذه المرة لم يكن كعادته، ربما لأني كنت محاصرًا بضيق الوقت والمكالمات القلقة التي كانت تزيد من شعوري بانفلات تحكمي في الوقت إلى درجة أني لم أعط نفسي الكثير من المساحة الزمنية لكتابة شيء، واكتفيت بتصوير صور فوتوغرافية على جدار ذاكرة هش؛ عادةً ما أفقد الكثير من تفاصيل مثيلاتها عند المراجعة التالية بهدف الكتابة الكلية للحالة.

في إطار الحديث عن البحر أحدثك عن الفرضية الثانية التي تنطلق من فكرة السببية والعلاقة بين البحر والحالة التي كسرت قانون الانبهار. تبهرنا بعض الحالات وتشدنا، لكن عندما نكتشف أنها جزء أو صورة يتوجه اهتمامنا إلى الكل أو الأصل.

فكرة الجاذبية تأتي من فكرة أولية هي سحر الحالات أو الأشياء، وكم سحرتني لحظات الوقوف أمام البحر وقوفًا بالحرف والنبض، لكن؛ لأول مرة أكتشف أن مساحاته العميقة والشاسعة التي تمتزج فيها القوة والغموض والشفافية والسحر أقل بكثير مما يحمل إنسان عزيز ما. وهِي هيَ من أثبت هذه الفرضية.

نعم؛ أنا لا أبالغ بالقول أن معها اكتشفت ضعف البحر في إبهاري مرةً أخرى، وكل الأماكن الساحرة أصبحت عاديةً جدًّا لأني استوطنت وطنًا أكبر شساعةً من الأرض التي يتحدثون عبر مختلف نقاطها عن مفاهيم

المساحة: وطنًا أكثر سحرًا من كل ما وُصِف وما سيُوصَف مستقبلًا.

×××

وعدت إلى البيت مساءً لأجد السحب في استقبالي؛ تبللني في غير موسم، وكأنه الحضور قدر الممكن قبل الرحيل، فراح يشعرني هذا المشهد الاستثنائي برغبة في البكاء، ورغبة مجنونة في الوقوف تحت المطر كي أغتسل من حزني وخوفي.

تنسكب الدموع وحبات المطر بوتيرة متناغمة: لحن كوني يجتاح الأوصال، ويصنع التيه المقدس.. هنا تمنيت أن أحتضنها بعنف تحت المطر، وأن تضمني إلى صدرها فأحيطها بذراعي، ثم أنفلت منها في حالات تجمع بين رغبات مجنونة في الركض والصراخ بأعلى ما لدي أني أحبها، ثم أعود إليها بشاعرية اللقاء الأول لأهبها شيئًا من روحي.

قبلة المطر ليست كأي قبلة! هي ترتقي بنا عندما يطهرنا المطر، لتكون أغنية الشفاه أكثر قداسةً وأكثر سحرًا وأكثر دفئًا.

يومها غسلت وجهي بالدموع وغسلت بقايا الدمع بماء المطر..

×××

في الصباح التالي؛ كانت كلماتها العالقة في الذاكرة نسمةً تعانقني لأتنفس من خلالها عطرها. كانت أنثى استثنائيةً غير كل الإناث، وكانت لفحة شمس ذاك اليوم قبسًا من سحر عينيها؛ منحني جرعةً لمقاومة البرد الذي تذكرني في غير موسم كأنه الآخر يودعني.

ابتسامتها كانت لحن اليوم كله عبر باقات الحب التي رددتها حناجر العصافير ورقرقة المياه في شلالات العاطفة الطاهرة.

روحها تمثلت في أبهى حلة لها؛ كانت قربي صبيةً ببراءتها الكاملة تعبث بجدائل شعرها وترقص على لحن انبهاري بها. مددت يدي بجنون أداعب أنفها كما أفعل مع الصغار الرائعين. لكن؛ اختفت ملامحها خجلًا لما ارتطمت يدي بنافذة الشوق.

بكيت حينها بصمت لا يحسه إلا من انسكب الحب في مجاري دمه ومجاري أنفاسه وفي محبرة قلمه. مسحت آثار الدمع وأنا أبتسم. ربما بكيت لأن الفواصل ما زالت قائمةً في منعطفات الارتباك التي لم تتجلى في تفاصيلها قدرية الانتماء لبعضنا.

عزيزتي؛ في تلك اللحظة قلت لنفسي: لن أخسر شيئًا إن أنا انتظرت أمام مشارف قلبها أقاضي الشك والظنون كلها وخوفي القديم في مصداقية النبض والحرف، ولن أخسر شيئًا إن أنا أفنيت بعض عمري لأجل أن أفني باقيه لأجلها.

كتبتني اللحظات كعادتها لحظة اكتشفت من خربشاتي أني كتبت اسمها رسمًا ونبضًا بخط عريض في صفحة الذاكرة، فهنيئًا لها – يومها– باحتلال صفحاتي.. ومرحبًا بها – يومها – في مدينتي المتخمة بها.

×××

سأقدم لك مفهومين عن المسافات وعن الطقس كتبتها لأجلها في ظل ما يتراص داخلي من عاطفة متأججة للقائها والتوحد بها في عالم كنت أرسمه على الورق حلمًا.. وقد كتبتهما لها نصين مؤرخين بلحظتي ميلادهما في سبتمبر السفر، وهي من الرسائل الموثقة لمشاعري تجاهها والتي لم تسقط من ذاكرة المدون..

فأما عن مفهوم المسافة الفاصلة؛ فإني قلت فيه:

لم يعد التقدير الكيلومتري ذا قيمة لتحديد ما يفرق بيننا لأنها صارت ذليلة حسابات أخرى، ولم تعد الفروق الشاسعة بين النقطتين التي نتمركز فيهما نحن كلينا مخيفةً أو عائقًا فعليًّا.

لا يقهر القلب حساب الأمتار بقدر ما يقهره حساب الدقائق! لم تكن أبدًا في حساباتي كم أقطع من كيلومتر لأجل أن ألتقيك، الحساب الرئيس هو التالي: كم هو طول الزمن الإجمالي الذي سيستغرقني وأستغرقه أنا كي أكون معك حبيبتي؟

المسافة المكانية أو المترية أو المادية – كيف شئت أن تسميها – تتضاءل أمام المسافة الزمنية التي كنت أحسُبُها بالأيام ثم بالساعات، وصرت الآن أحسُبُها بالدقائق.

لم تكن الدقيقة ذات أهمية بالغة، فكان يكفي أن ألتقيك في ساعة ما بغض النظر عن الدقيقة الجزئية في الساعة تلك، لكنها أصبحت ذات أهمية فعلية، فكلما انحصرت الدقائق أكثر كلما فقدت فرصةً أكبر للظفر بجرعات إضافية لمقاومة البعد الجبري والكبت الحتمي لكل ما يمكن أن يوجه لك رسالةً صريحةً أو ضمنيةً بأني أحبك، لأني منذ أن عرفتك بدأت أحسُب جديًّا لمسارات الزمن، وتغيرت مفاهيم القيم المادية ومفهوم الزمن بالذات.

أما عن مفاهيم الطقس في أرضي؛ فرأيتها تتخذ منطلقات فلسفية مغايرة، فكل الفصول أصبحت ممكنةً وكل الفصول صارت مجنونةً، وكلها ساحرة.

في حضرتك حبيبتي أستحضر الشمس وسط الغيوم كابتساماتك الرقيقة، وأستحضر المطر في أكثر الأيام صحوًا وحرًّا كهمسك اللذيذ، وأستحضر القمر والنجوم في منعطفات الشوارع المتراصة كنص نثري متخم بالمشاعر، وأستحضر قصائدي فقط في وجودك.

وعندما ترحلين أجدني عاريًا من كل المغامرات الشعرية، ويبقى فقط نبضي يردد اسمك كي أعيش مزيدًا من العمر لأجلك.

×××

- ٧ -

كان يوم الأحد الخامس والعشرين من سبتمبر يوشك على الانتهاء في أجواء تحتوي كل المتناقضات من السعادة والحزن والأماني والخوف من انتكاسة مجددة..

قبل ساعتين من منتصف الليل أتاه اتصال منها تسأله عن الأجواء وآخر الساعات الفارقة بينهما، فقال لها أن كل شيء بخير.

كلمت أمه بسعادة وتضامن معها على هذا الرحيل الإجباري، وقالت لها: يا أمي لا تخافي على ابنك هو في عيني وعلى رأسي. خففت كلماتها من خوفها ومنحتها كلمة أمي شيئًا من العزاء على فراق البكر وفلذة الكبد فراقًا لا تدري ما يكون وراءه من أحداث. بكت الأم سعادةً وخوفًا وحلمًا بالعودة.

مرت الدقائق الخمسة والأربعون بسرعة ليقرر أول خطوة في مشروع الرحيل. كانت تحضنه أمه بقوة وبعنف وبرحمة الأم وخوفها وشوقها وإشفاقها، قبلته وقبل يدها راجيًا الدعاء. كان الموقف صعبًا جدًّا فوق قدرة الكلمات على تصويره.

في خطوات مرتبكة يباغتها الصمت أحيانًا ويلفها النصح أحيانًا أخرى سار رفقة أبيه وأخويه باتجاه مطعم (حراش مشتة) لانتظار حافلة من المتوقع أن تنطلق باتجاه العاصمة بعد منتصف الليل.

التقى بجوار الحافلة صديقه المهندس «مبروك» ليتبادلا بعضًا من الأحاديث العاجلة المختصرة لأن اللحظات لا تمنح الكثير من التفاصيل. تبادلا عناق الأصدقاء وانصرف مبروك قبل المغادرة بدقائق بسيطة ليمنح

اللحظات الأخيرة لوالده وأخويه.

صديقه الثاني المهندس «مفتاح» لم يستطع الحضور في موعد الرحلة ولم يستطع مكالمته، حتى أنه أغلق هاتفه وانتابته لحظات بكاء لم يتوقعها.. كانت رسالات صامتة تصف عمق الصداقة وحرقة البعد.

هناك أصدقاء يدهشوننا بما في قلوبهم من صدق.. قد يخيبون ظنوننا بعض الوقت لأنه لا شيء كامل لكن يبقون رائعين دومًا..

×××

رغم كل ما يحبطني في الحلم أن أكون بشريةً، أو أتلبس جسد إنسية لأكون من نصيبه واقعًا كما أنا له حلمًا – بسبب تراكمات الوجع في داخله، وتلك الخيبات التي حصدها من تفاعلاته البشرية مع الآخرين – اليوم تحديدًا أقول إنه صار يبهرني هذا العالم البشري بسببتلك المواقف العاطفية الرقيقة والصادقة التي تذهلني حد مراجعتي للفكرة ككل.. فهل أكون من نصيبه يومًا؟ مجرد سؤال حالم!

×××

الفصل الرابع

- ١ -

منتصف الليل ونصف تمامًا أعلنت اللحظات عن بداية الرحلة، وبداية يوم جديد في الحياة برمتها. والده الرافض لفكرة السفر يحدث المفاجأة ليرافقه إلى غاية المطار وينتظر معه حتى دخول قاعة انتظار الرحلة.

انطلقت الحافلة مسرعةً كأنها تتضامن مع القلب، وتريد إيصال المحب إلى أقرب محطة للحبيبة. وصلت الحافة إلى محطة (الخروبة)[١] على الساعة الثانية والنصف صباحًا.

خلال ثلاث ساعات مرت اللحظات بين سير وجلوس، وحوار مع والده أو مع حبيبته. حوالي الخامسة والنصف خرجا إلى مدخل المحطة الجنوبي؛ ليستقلا حافلتين على التوالي بأمنيتين متناقضتين قِيلتا في صمت بعض اللحظات.

بعد دخول المطار الدولي (هواري بومدين) قام بالاستعلام عن الرحلة، ثم توجه إلى الشباك (٢٥) لتأكيد تسجيل الرحلة، ثم سجل أمتعته، وعاد إلى الجلوس قرب أبيه يخبره أن الخطوة الخطيرة هي المتبقية؛ والتي ستمنعهما من البقاء معًا حال التأشير على الجواز ودخول قاعة الانتظار النهائية للرحلة.

جلسا حوالي الساعة وبضعًا من الدقائق الموجعة ليكون الوداع في جو أُخْفِيَت فيه الدموع رغم عجز أبيه عن كتمها.

١- (Gare routièred›Alger) المسماة أيضًا (محطة كبار معطوبي حرب التحرير الوطني) منذ تأسيسها عام ١٩٩٤، وهي المحطة البرية الرئيسية في العاصمة.

أمام طائرة الخطوط الجوية الجزائرية كان يتشبث بأجنحتها يترجاها الإقلاع فورًا. في لحظات الانتظار كان لا بد من مكالمة بعض الأعزاء من الأصدقاء والأقارب ثم والده، وكان مسك الختام أمه.

وعند الساعة التاسعة والنصف راح يخطو خطواته الأولى باتجاه الطائرة، ويتوجه للجلوس في الكرسي رقم (A9) بجوار النافذة على الجهة اليسرى للطائرة وهي الجهة التي تمناها.

وبتأخر قدره عشر دقائق انطلقت الرحلة فعليًّا من مطار الجزائر العاصمة باتجاه مطار القاهرة الدولي (المطار القديم). طارت الطائرة في أجواء جديدة، لكن لم تكن مبهرةً، ربما لكونه مشدودًا أكثر إلى لقاء جنا. كان يتتبع تفاصيل الرحلة المعروضة بجزئياتها على الشاشات في الطائرة من حيث المسافة والسرعة والزمن والارتفاع ودرجة الحرارة والإحداثيات.

×××

لأول مرة في التاريخ ينظر إلى ساعته وهو خارج الوطن، وقد وصلت الرحلة على الساعة الثالثة إلا ربع بتوقيت القاهرة. لم يتأخر كثيرًا في الخروج؛ فالمدة كانت أقل من نصف ساعة، ليجد نفسه في قاعة انتظار الواصلين.

كان شوقه يقوده إلى طاولة انتظارها، ليتقدم إلى حبيبته بهدوء يصافحها المصافحة الأولى في العمر، ويتعرف إلى صديقتيها شيماء ووردة. لم يكن اللقاء بالحرارة والجاذبية التي كان يرسمها في مخيلته، بل كان لقاءً عاديًّا جدًّا في ظاهره رغم أنه كان تاريخيًّا وعزيزًا.

رُحِّب به بحفاوة بالغة، وكان المحبان في حالة استثنائية من خلال

نبض مكتوم أمام الذي قِيل في حالات الصمت الأولى. كان كأنه يسرق تفاصيل ملامحها أمام اهتمامه بالجميع مقابلةً لمشاعرهم الطيبة التي لاقوه بها. بعد الخروج من قاعة الانتظار كانت الوجهة عبر سيارة أجرة إلى فندق (عبيد هاوس) الموجود في شارع جسر السويس، وكانت بجواره. نعم؛ أخيرًا يجلسان جنبًا إلى جنب.

بعد الوصول إلى الفندق وإكمال إجراءات الحجز، والصعود إلى الغرفة لترك حقيبة السفر هناك كانت الوجهة احتفاليةً باللقاء بوجبة غداء، ثم كان عليه أن يقتني خطًّا هاتفيًّا والحصول على رصيد كاف لمكالمة دولية، ومكالمات عديدة مع الحبيبة. استغلت حبيبته الفرصة في جعل هذه المقتنيات هديةً منها له مع ساعة يد، وزجاجة عطر، ووجبة عشاء جاهزة اقتناها معًا.

كانت ليلةً حافلةً بكثير من المشاعر عبر ترددات المكالمة الأولى عبر مسافة فاصلة صارت تُعَد بدقائق بدل الساعات وبضعًا من الكيلومترات بدل الآلاف منها. كانت أجواءً استثنائيةً جدًّا.

×××

- ٢ -

التقيا في اليوم الموالي لاختيار الصرافة لتحويل (اليوروهات) إلى جنيهات مصرية، ثم توجها إلى (قصر البستان) بالقرب من محطة مترو (حلمية الزيتون) لتناول مشروبات باردة، وجلسا للدردشة قرابة الساعة والنصف، لتعود إلى بيتها ويعود هو إلى غرفته في الفندق.

لا يمكن بأي حال أن يستكمل أيامًا عديدةً في فندق يستهلك رصيده المالي وهو مقبل على مرحلة يحتاج فيها كل قرش، لذلك كان حريًّا أن ينتقل إلى السكن في شقة مناسبة.

تكفل بهذه المسألة سائق سيارة أجرة تعرف عليه في اليوم الثاني اسمه (العم أشرف).

قبل أن أحكي لكم ماذا فعل العم أشرف سأحكي لكم موقفًا طريفًا حصل معه وهو يوصله إلى الفندق، حيث سأله عن قيمة الرحلة فقال له: دع عنك.. أو بما يُعَبر عنه باللهجة المصرية: (خَلِّي.. خَلِّي عنك..) تبيانًا أن المال ليس كل شيء في المعاملة..

غير أن العبارة في الجزائر مع اشتراكها في المعنى تفرض موقفين جادين، هما رفض الأجرة جملةً أو تأجيلها إلى الرحلة التالية افتراضًا لكون الصديق لا يحمل معه مالًا كفايةً.. وهذا ما جعله يشكر السائق ويتوجه إلى الفندق ليتصل به العم أشرف: «(ايه) يا نزار، أنت لم تدفع الأجرة!»..

نعم؛ ما هذا الحرج الذي أوقعه فيه؟ لكنه تقبل الموقف بابتسامة بعد شرحه له فهمه لجملته وفق ثقافة التعامل في الجزائر، فقال له: ليس هنا! هنا يقول لك دع عنك، وفي قلبه هات المال يا ابن (الـ..).

العم أشرف رجل من صعيد مصر اختار العيش في القاهرة لضمان لقمة عيشه، وفي العمارة التي يسكنها هناك شقة غير مسكونة، فطلب من صاحبها أن يؤجرها لصديقه.

في الأول رفض صاحبها مطلقًا، لكن العم أشرف قال له: يا حاج صبحي؛ أنا أضمن هذا الرجل، وإن بدر منه شيء يزعجك فلا تكلمه، ولكن كلمني أنا.. فوافق أخيرًا مع تحفظ إلى أن قابله؛ فزالت مخاوفه من خلال حديثهما وتوضيح بعض التفاصيل الجزئية التي جعلت منه الكريم الذي وقف معه في تغيير قفل الباب، والاستعداد لخدمته بأي شيء يطلبه..

في اليوم التالي كان الرحيل عن الفندق باتجاه الشقة الجديدة، كانت رفقته جنا وشيماء مع السائق العم أشرف. تم اقتناء أغراض لغرفة النوم والمطبخ في طريقهما، لتتركهما شيماء في منتصف الطريق ويوصل العم أشرف جنا إلى بيتها، ويكملا معًا بقية المشوار إلى الشقة الجديدة ليتم ترتيب الأغراض التي تم اقتناؤها. ثم يأتيه العم أشرف بوجبة غداء من بيته إكرامًا لأول يوم إقامة بجواره.

×××

وحيث إنه لم يعتد أن يعيش حبًّا حقيقيًّا في واقعه كانت تفاصيل لقاءاتهما باهتةً في وجهة نظر أي محبين تحديا العالم لأجل أن يكونا معًا..

ربما لم يكن يحوز الجرأة الكافية للتعبير المباشر عن مشاعره، وربما كانت الانشغالات في ظل القلق الخاص لحماية هذه العلاقة هي السبب، مع القلق العام في ظل ظروف أمنية تهتز في كل لحظة.. لكن لم يكن يُبَرر له

في وجهة نظرها ذاك الصمت القاتل وتلك المسافة الفاصلة بينهما رغم التصاق اليد في اليد..

جاء اليوم الثاني عشر منذ أول لقاء بطلب موجع له؛ لم يتخيل أن جنا تطلب أن يفكر في مصداقية مشاعره تجاهها! ألزمته بوعدها بالتفكير.

بعد ساعات تأمل؛ اكتشف أنه أخطأ في كتم ما يجول بداخله من أفكار ومخاوف، لكن بعدما اتضحت الأمور رجع أقوى مما كان.. وراح يقرأ لي ما كتبه وصفًا لتلك الحالات المستجَدة كأول نص قاهري النكهة:

نسمات المساء أتت تتحرش بي تباغتني عن اليمين وعن اليسار، تضع أنفها فوق أنفي تبحث عن منافذ لاستفزازي. ثرت في وجهها: ما تريدين مني؟

قالت: اشتقت لبوحك وجنونك. قلت لها: البوح حق محجوز لحبيبتي؛ تلك الحاضرة الغائبة عن اللحظات، وكل الظروف متواطئة ضدي: حرارة جسدي وحمى السقم وحمى الشوق؛ كلها تحرق جسدي وأنا هنا لا رغبة لي في شيء سوى أن أطمئن على حالها وحسب.

باغتت صمتي رسالتها المعطرة بتفاصيل ابتسامة أبهرتني منذ اللحظة الأولى، فابتسمت، وتنفست بعمق. كانت تترصدني نسائم المساء، وأتت تركض من كل الجهات..

قالت: هناك شعاع في عينيك، وبريق افتقدته وأتى اليوم صريحًا! أخبرني، بشرني..

أمسكتها من يديها وقلت لها: اُرقصي معي، فحبيبتي بخير وستجمعنا

اللحظات قريبًا. في لحظات الانتظار راقصتها لدقيقة وتوقفت، ثم تأوهت بعمق..

قالت: ما بك؟ قلت لها: دعيني أحتفظ ببقايا طاقتي لأكلم حبيبتي بكل وعيي، وبعد ذلك سأراقصك حتى يصيبني الدوار، وأسقط أرضًا ويوقظني شعاع النهار. وفي قلب اللحظات المملوءة بجنون اللحظة وسكرها تكلمنا أخيرًا، قاطعنا الصمت والصدى والتوقفات العفوية والاضطرارية.

×××

لا يهم ما فاتني، بل المهم أني اغتسلت بكلماتها حدًّا أحسست من خلاله مقدمات الشفاء من الحمى ومن الوجع. راقيتي من كل وجع ومن كل حمى، هي التي يليق بي أن أحبها وأتمناها دومًا حبيبتي.

انتظرتها ساعةً ونصف. أربكني الانتظار حد النظر في برنامج رحلتي بشكل كلي؛ كي يتأقلم مع تغير نقطة البدء الزمنية. التهمت أنفاسي بشوق وبتوتر وغضب، لكني رميت توتري من نافذة الحافلة بمجرد التحاقها بي بابتسامة خجولة تحمل أرق عبارات الاعتذار. حجزت مكانين لنا معًا، وتركت لك الجهة المجاورة للنافذة.

×××

- ٣ -

تأوه بعمق وخرج عن مسار سرده للوقائع ليتحدث عن الرواية، وقال لي: إن أصعب شيء أن يحاول الإنسان كتابة نفسه، وكتابة ما يشبه سيرةً ذاتيةً له!

ما يقارب خمس سنوات وثلاثة أشهر ولم أكمل شيئًا ذا دلالة أن الرواية في طريقها إلى النور، ورغم أن الثمرة الأولى ولحظة الهمسة الأولى المرجعية لهذه الرواية أو هذه الحكاية التي تودين صناعتها في قالب رواية كانت في الفاتح نوفمبر ألفين وعشرة، إلا أني تبنيت في البدء الثامن مارس من السنة التالية لها؛ لأنها أسست لهذه الحكاية بكل أبعاد ما صار مُعاشًا فعلًا بعد أن كان مجرد أحلام وأمان ننام على التمسك بها أكثر من أنفاسنا..

حاولت أن أكون البطل والراوي في بدأ الحكاية، فكتبت:

لأجلك رسمت خريطةً سياسيةً واقتصاديةً وعاطفيةً لمدينتي، وحددت حدودها وطرق الدخول إليها بعد معارك طاحنة لسنين عجاف أردت أن أتنفس فيها عطر أنثى تحتويني، حدث هذا بعد أن جئتِ أنتِ وقلبتِ كل شيء في فلسفتي، وغزوت المدينة وحطمت الأسوار وتركتني مذهولًا جدًّا، وقدمت لي كتابًا عنوانه: «أنا قدرك فارسم خرائطك بعطري أنا!»..

ولأجلها ولأجل اعترافها زرعت على وسادتي حلمًا، وسقيته شوقًا وقصيدةً، وتركته ينمو كوردة أسطورية؛ وضعتها في أبهى شرفات الذاكرة المطلة على قلبها، ولأجلها رسمت للحلم صورةً؛ سميتها باسمها، ونمت حالمًا أن أحدث سبتمبر اللقاء عن سحر الوردة وسحر اللوحة، وأحدث الأيام بعده كم كان بهيًّا نقيًّا هذا السبتمبر!

قلت لها وأنا أقترب من الطائرة التي حملتني إليها:

أيوجد أحر من جمر انتظارك يليق أن أنتظرك على لحنه ودفئه واشتياقه لأنفاسك كي يزيد التهابًا؟ قولي لي بربك؛ فإني أعجز عن وصف شوقي لأن يداعب صوتي قلبك وروحك، ولأن يسكن حرفي ذاكرتك بترددات النبض في قراءاتي. كما أتمنى أن يعم صوتك أرجاء أرضي، فتسمعه الروح وتسمعه أرجاء المدينة المشتاقة لعطرك، وصدى صوتك؛ فيكون موسيقى، وشدو أجمل عصفورة في الذاكرة يا عصفورتي أنا..

وكتبت لها في الطائرة نصًّا لقراءته عند اللقاء ارتجالًا لا نظرًا إلى أوراقي كي أتحسس كل انفعالاتها وهي تستقبل بوحي في أول لقاء حقيقي يجمع بين دهشة اللقاء وسقوط كل الشكوك العالقة، ورحت أحفظه مرارًا حتى ترسخ في الذاكرة.. وكتبت لها الآتي:

اختصرت الكثير من التحيات الرقيقة في وردة.. قد يقدم الورد الكثير من الامتنان بالآخر أكثر من الحرف وإن جاد وأنصف، وإن تحلى بدرر النبض وانحناءات الجمال وانسيابيته..

وأنا بين باقات الورد سألت نفسي: هل يليق بي يوم ألقاك أن أهديك وردةً؟ أو ابتسامةً بعطر وردة؟ أم رسمةً للوحة فيها وردة؟ أم قصيدةً عنوانها وردة؟ أم تكوني أنت الوردة في لقائنا، فلا أجد حينها إلا الانحناء شعرًا ونثرًا لأجلك؟ شممت عطر الورد وقلت أمامها لك: مساؤك (عطر وردة) لا يضمحل ولا يتلاشى حتى ألتقيك بعطور أرقى.. مساؤك كله عطر..

لكن سقط الورد وسقط الاعتراف وكان اللقاء باهتًا بلا ألوان.. كان لقاءً بالأبيض والأسود بإخراج جزائري يرفض التعامل مع العاطفة المتأججة

للحب، ويحجب عن الأنظار ما أفلت بمقص الرقابة تحت مسمى الممنوع من المشاهدة.. المسكوت عنه في ذاكرتنا أصبح واقعًا أمامي وأنا ألتقيها وأضع يدي في يديها..

إلى شرفة غرفتي خرجت صباح آخر يوم متخم بوجع مداهمتي لسؤالها، ورحت أهمس لها بقولي: أتنفسك حد الجنون يا من أشتاق إليك حد البكاء! أتنفسك حد الهذيان والسكر، وأحن إليك حد الركض في مسارات الشوق كي ألتقيك.. فلنلتق..

تعالي؛ أريدك أن تقرئي ما في بداية الحكاية، وتعالي نعيد الحسابات. كلماتي فقدتها عندما أردت أن أضع حدًّا لضياعي في دهشة اللقاء، وحدًّا لوسوسة تضعني ما دون الإيمان الكامل بأننا معًا، فاعذري حماقاتي..

×××

- ٤ -

رغم عامه الخامس والثلاثين إلا أن في عينيه بريق طفل في العاشرة، كنت أمرر يدي على شعره وهو يعتدل لوضع رأسه على حجري كي يحس بالانتماء القديم..

كنت ألاطفه بلمسات بين خصلات شعره لأجده ما زال متعلقًا بها ويحبها، لكن؛ عندما ألامس قلبه أقرأ من خفقاته عبئًا يتجاوز عمره الحقيقي بعمر للوجع!

كيف لإنسان أن تتعدد الأعمار في مدينته؟

أنظر إلى تفاصيله أراه نحيل الجسد متعب القوى باهت اللون والمحيا.. يرتسم أمامي كشجرة مثمرة هجرها المقربون وبدأت تربتها تجف، فصلت لأجل نفسها صلاة الاستسقاء؛ فأمطرها الله بماء الحياة فسرقها من في الجوار.. فراحت تتفتح في وجهها ابتسامات تخفي وجعًا قاتلًا، وتقدمها زكاةً ليبارك الله في ماء المواسم القادمة، فيسخر المارون بها من بساطتها، فتبكي عيونها لتزيد الأرض ملوحةً وتزيدها الأرض عذابًا.. فكيف لي أن أجتثها من هذه الأرض المالحة؟

في هذه اللحظة قال لي: لا ذنب للأرض؛ فهي طاهرة! لومي من كان السبب في وجعي لا الأماكن..

×××

إجابته كانت تحيلني إلى أعماق ماضيه المتخم بالوجع والنزيف. كيف يمكن أن نتخلص من سطوة الماضي؟

لو كان الماضي أحداثًا فرديةً مستقلةً كان سهلًا علاجها بالنسيان أو

التناسي، لكني أراها تمتد في حلقات إلى الحاضر وتتوعد بالبقاء مستقبلًا.

كيف يمكن أن نتجاهل الحديث عن الماضي ونقول أننا أبناء اللحظة والوجع القائم له تكرارات في الماضي وأبعاد في الأمس العميق ويتطفل على الحاضر وفي يده أجندة مليئة بتواريخ الآتي؟

كيف نطهر الذاكرة من هذا الورم الممتد عبر السنوات؟

كنت أكتم أسئلتي داخلي وأنا أتحسس شعره كي ينام. كان يشتاق للنوم بين يدي، وكنت أشتاق لهذه القراءات ولهذه المشاركات في اللحظة وهذا الحضور في ذاكرته وأيامه.

طبعت قبلةً عميقةً على جبينه فابتسم وهو نائم. قلت له: أحبك يا شقي، فضحك ضحكةً عميقةً. كم أتمنى أن تكون هذه الضحكة رفيقة محياك في أيامك كلها ولا تبقى حبيسة حلم تراه في لا وعيك..

عدلت رأسه كي ينام جيدًا وقمت أتنفس نسيم صباح بعد ليلة بوح، لكن انتبهت إلى أصوات أناته وكأنه يصارع شيئًا ما، فركضت وارتميت داخله كي أمسك باللحظات بكل جزئياتها وصورها.

×××

– أنت فاشل!

– لست فاشلًا، ولم أكن كذلك يومًا.

– سأثبت لك أنك فاشل، وفاشل عميق، وفشلك يستدعي الصراخ في وجهك بعنف.. تغربت عبثًا، ولا تقل كيف؟ كل هجران للديار لأجل أنثى هو طيش وعبث! وما عهدتك إلا أنانيًا تفكر في نفسك وحسب.. وليتك تفكر بمنطق يحميك من نفسك، ومن جنونك.

– جنونك؟! مرةً أخرى تنسب إلي الجنون؟! أناني أنا؟

– أصنعت كيانك كفلان وفلان من أقرانك وأصدقائك؟ ألك بيت باسمك؟ ألك سيارة تعينك على تنقلاتك؟ ألك رصيد من المال يعينك على محن الحياة وأزماتها؟

ثم إني لا أرى لك ولدًا وأنت على مشارف السنة الرابعة من زواجك؟ لا أعترض على الله في حرمانك إن قدر لك ذلك، لكني أرى إهمالك في تتبع السبب واتقائه، وأراك مستهترًا في ذلك!

– أتريد أن أقطع كل حبال الصلة بكم، وأرحل إلى حيث لا تعلمون لي مكانًا ولا مصيرًا؟!

– تهديد! هروب! لست فالحًا إلا في التهديد وامتطاء صهوة الهروب، ولا تجرأ على مواجهة هذه الحقائق؟

– أنت من تراها حقائق ومسلمات ونقائص في ذاتي.. أتدري أنك برؤيتك هذه لن تراني محسنًا ولو أحسنت الدهر كله؟

أتعتقد أني سأرضى بالعودة إليكم وأنت ترميني بهذه الرصاصات القاتلة لكل رغبة تلح علي بالعودة؟

لماذا تقتل في داخلي دوافع العودة، وتعزز مشاعر الابتعاد؟ لماذا تشعرني بأني مجرم في حق نفسي وفي حقكم؟

لماذا تجعل من جنة حلمي بالعودة جحيمًا أقسى مما أعيشه في غربة لا أعرف من هي الأشد مرارةً: استيطان مكان ليس لي ويقول مشيرًا لي بأصبع مستنكرة: هذا غريب وليس من هنا، أو وطن طينتي من طينته؛ ومع هذا أشعر بزلزلة الأرض تحت قدمي وأنا أسير فوقه ولا أصل حالة الاكتفاء

بالانتماء والشعور بالأمان؟

كيف تشعرني حد التخمة بمشاعر الإقصاء والتهميش والتحقير وتنتظر مني شيئًا ذا قيمة؟ كيف ترفض انتقادي ومساهمتي في بناء الفكرة والتصور وتسخر من صمتي العميق؟

كيف تلغيني من الوجود وتتهكم على عزلتي العميقة من أجل أن أحس أني أتنفس؟

لماذا تريد تسطير حياتي بالمسطرة، وفق بنود نظرتك العاجزة وتتهمني بالعجز في إدارة حياتي الخاصة والمساهمة في الحياة العامة؟

كيف تقارني بغيري وغيري يُشَجع ليصل، وأنت تثبط همتي قبل أن أتحرك؟

كيف تقارني بغيري وهم يُؤَزرون رغم فشلهم وفراغ فكرهم حتى يصنعوا الفكرة ويصنعوا النجاح؛ وأنت تقتل الفكرة الحاضرة المتقدة داخلي وتعيق انطلاقي نحو آفاق أريد فيها صناعة نفسي بنفسي؟

كيف تتهمني بالفشل وأنت تؤسس للفشل وتصنعه، وتقدمه على طبق من احتراق يعيق تنفسي ويفرض علي الرحيل؟

– يا ابن الـ..

– صفعتك القمعية هذه لم تعد تؤلمني، لأني شبه ميت لم يعد يحس بآلام تأتي من يدك الظالمة.. بركان ثورة وغضب داخلي ومع هذا أقول: هذا أبي..

ألا يشفع لك هذا الإقرار بالانتماء والصبر على جبروتك؟

سأرحل وأتركك تعيد حساباتك.. سأرحل.. سأرحل..

مشاهد من الوجع كنت أراها في حوارية عميقة انتهت بانصرافه إلى

ظلمة الشارع الطويل يمشيه بوجع آخر.. كانت أنفاسه وصدى خطوه المرهق ثنائيتا كسر ذاك الصمت المطلق في المكان..

قاده السير إلى ضفاف وادي القرية، ومشى حتى وقف عند صخرة.. قال: أنت ذي.. نعم؛ أحدثك أنت أيتها الصخرة الصماء، وأعرف أن فيك حياةً وإن لم أفهم طريقتها وأسلوبها. نعم؛ أحدثك أنت أيتها الشاهدة على ذكرى وجع عمره ثلاثون سنةً..

جلس أمام الصخرة بمتر فاصل، تنفس بسخرية وراح يحدثها:

– في ذاك اليوم كان الماء العابر من هنا يغطي جلك، وهذا المتر الواحد الفاصل بيننا كان كبيرًا بالنسبة لطفل في الخامسة من عمره..

في ذاك المنحدر هناك كنت أرى الماء موج بحر – وإن لم أعرف البحر إلا في أول الشباب – وكان مثيرًا جدًّا أن أتحدى.. مثير أن يكون هناك طفل مشاكس في الخامسة لا يهاب الماء ولا يهاب الموج ويريد أن يواجه كل العقبات التي تبدو مستحيلةً في نظر الآخرين..

كانت بجوارك صخور أقل منك شموخًا في عمق الذاكرة؛ لذا رحلت مع تغير الزمن، وبقيت أنت كالذاكرة كلاكما يشهد على الأخرى.. حاولت تجاوزك بقوة واندفاع وسرعة..

كان لا بد لكي أنجح أن أكون ذا بديهة حاضرة وسرعة تعامل مع الموقف ووصلت إليك بقدمي الصغيرتين، ووقفت بشموخ طفل جريء عابث بالخوف ورحت أنظر إلى هذه الضفة، وأستجمع قواي للقفز..

قصر طولي وصغر خطوتي خانتني رغم شجاعة الموقف، وقفزت

لتصل قدمي اليمنى وتأخرت اليسرى لتهوي بالجسد كله في الماء.. مواجهة أولى وفشل أول..

كم جميل لو تعلمت منه درسًا بعدم اليأس من المحاولة مع تقدير العواقب والظروف المحيطة بالتجربة.. ولو انتظرت سنةً أو سنتين لتطول قامتي ولا يخذلني صغر بدني..

كم جميل لو انتهى المشهد بضحك وسخرية طريفة من ذاك السقوط.. كم جميل لو مُسِح المشهد كله من الذاكرة! لم يحدث أي من هذه الافتراضات..

أتعلمين ما مقدار المسافة بينك وبين بيتي؟ وما هو مقداره في نظر راشد وفي نظر طفل في الخامسة حيث المسافة تتضاعف بصغر حجم الخطوة؟

مسافة من الوجع والنزيف كالكِي في الذاكرة.. تمر السنوات ولا يفنى مكان الحرق العميق.. تخيلي أن أُضْرب بامتداد المسافة كلها.. تخيلي مقدار الوجع الذي ما زلت أحس به في جسدي وروحي حتى الآن..

تخيلي أني صرت أخاف الوادي والبحر دون أراه في طفولتي وغضب الماء إلى حد الساعة..

غادر المكان يجر قدميه فإذا بكلاب تنبح فيه بشدة.. فراح يوجه لها كلامه:

– أيتها الكلاب الحقيرة انبحي كيف شئت، واغدري كيف شئت؛ فأنا باق في مشيي قدمًا..

ورماها بالحجارة لتبقى بعضها مكانها وتتراجع أخرى، ويستمر هو في الابتعاد حتى الوصول إلى بستان بيتهم بعد مشي مرهق.. توقف عند

شجرة الزيتون، ثم لامسها برعشة وكلمها:

– أستحلفك بالله أيتها الزيتونة الشامخة كذاكرتي، وأنت الشاهدة على الذي حدث منذ ثلاثين سنة؛ هل عدل أن أُعَاقب عقوبةً يمتد أمدها عمرًا كاملًا؟!

سار بصمت يشبه صمت الزيتونة، ووقف عند شجرة البرتقال.. نظر إليها يتفحصها ونظر إلى حقل القمح المتسع:

– غريب أن ينظر البعض إلى الطفل كحبة القمح يرميها في الأرض وينتظر موسم المطر هبةً ربانيةً لتثمر سنبلةً وآلاف منها تثمر حقلًا، ويقول نجاح الولد رباني وفشله معارضة للإرادة الإلهية التي تقدم له أسباب النجاح، وكأن السنبلة العقيمة أرادت أن تكون عقيمةً أو تبعث في نفسها السوس الذي يسقطها أمام السنابل الأخرى..

ألم ينظروا إلى شجرة البرتقال التي تحتاج العناية عمرها بأكمله؛ تنقيةً للتربة من الشوائب وتهويةً لها وسقايتها بحب؟ فلا يكفيها أن تُسْقَى ماءً؛ بل ماءً بحب كي تشق طريقها نحو الأفق وتثمر ثمارًا طيبةً..

كان يقترب من حقل القمح يجول بنظره بين الدهشة والخوف.. حينها كانت حركة مريعة تتقدم إليه بسرعة بين قامات السنابل في انسيابية.. إنها أفعى وحجمها كبير حسب صدى حركتها وسرعتها.. اقتربت.. اقتربت.. لا.. لا..

قام فزعًا مرهقًا يتصبب عرقًا وبالكاد يتنفس.. ضممته إلي أهدئ من روعه.. كان يبكي بألم أعرف كل أبعاده وتفاصيله..

×××

— ٥ —

عاد إلى النوم، وتأخر حتى ترهل اليوم، ولما شارف على المغادرة استيقظ كمن يحتاج إلى نوبة نوم أخرى وأنا أراه يتثاءب بعمق.. توجه إلى المطبخ – ساحبًا قدميه على الأرضية مصدرتين صوتًا متواصلاً وهو مغمض العينين – ليحضر فنجان قهوة، ثم اغتسل بسرعة أثناء غليانها..

عندما جهزت سكبها في فنجانه، وسكب بين ثناياها ثلاث ملاعق سكر، وأتى بها إلى غرفة الضيوف، وضعها على المائدة الصغيرة المجاورة للأريكة ثم جلس..

– أحتاج رشفةً أولى لأجمع شتات جمجمتي الموجوعة من كابوس البارحة، ومن خمول الجسد أغلب اليوم..

– وأنا أنتظرك بكل تفاصيل الرشفة وما بعدها من تفصيلات للبوح..

وضع الفنجان جانبًا، تنفس بعمق، وتحدث في عمق الحكاية..

– الأحد التاسع أكتوبر ألفين وأحد عشر: الأحد الدامي أو الأحد الأسود، يوم قُتِل فيه ما بين أربعة وعشرين شخصًا إلى خمسة وثلاثين حسب إحصاءات مختلفة وتغطيات متفاوتة للحدث..

قِيل إن سبب هذا اليوم رأسًا كان هدم كنيسة قِيل إنها غير مرخصة في قرية المريناب بمحافظة أسوان، فثار الأقباط وبعض من ناصرهم في مظاهرة احتجاجية الراجح أنها بدأت سلميةً من منطقة شبرا وصولًا إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون في «ماسبيرو» على ضفاف النيل، ثم تحولت إلى مواجهات دامية..

كيف تحولت هذا التحول وسقطت هذه الأرواح؟ تختلف الروايات

حسب الجهة المتحدثة وحسب الهدف من وراء التغطية والتصريحات ولهذا لا يمكنني أن أوثق مسارًا لهذه الواقعة، إضافةً إلى أني ابتعدت ببضع ساعة عن مكان الواقعة قبل اشتعالها..

وكنت قد توجهت صبيحة ذاك اليوم إلى مبنى مجمع التحرير للسؤال عن حالات الحصول على الإقامة في جمهورية مصر العربية، فكانت ثلاثةً: الزواج، والدراسة، والعمل..

ولما كان منها الحصول على عقد عمل؛ استفسرت عن ذلك فكان متوجبًا الحصول على تصريح عمل. وبعد الاستفسار تم توجيهي إلى وزارة القوى العاملة، فكان القول أنه لضمان إقامة بمناسبة عقد عمل يلزمني العودة إلى الجزائر والحصول على العقد هناك، والحصول على تأشيرة عمل ثم بعد ذلك دخول التراب المصري والمطالبة بالإقامة. غير أن الفكرة استُبعِدت رأسًا لأن فيها عودةً إلى الجزائر ثم إنها مكلفة جدًّا..

ولأن الدراسة مكلفة أيضًا – وأنا كنت آمل تكملة دراساتي العليا في جامعة عين شمس – وبذلك وجدت نفسي أعلم جنا بما وصلت إليه من معلومات؛ تحطنا أمام إلزامية النظر في عقد الزواج المبكر للحصول على الإقامة، فكان أن أبدت استعدادها لعرض المسألة على أهلها بجزئيتيها، وهما: التقدم لطلب يدها رسميًّا، ثم استكمال إجراءات العقد قبل البناء.

ورغم البحث عن تسوية لوضعي القانوني لم أتوانى في البحث عن عمل، فكان اليوم التالي لما سبق الحديث عنه أول يوم عمل في مكتب (إنتر كمبيوتر) في منطقة الشرفا القريبة من شقتي ومن بيت جنا، وبمرتب بواقع خمسمئة جنيه قابل للزيادة بعد التجربة.

وحيث إني أعلمت أخي الثالث بضرورة الحديث في البيت عن قرب موعد الخطوبة ليكونوا على علم واستعداد للتواصل مع أهل خطيبتي أعلمته أن يخبر أمي بضرورة مكاشفتهم بكف بصر جنا..

والمدهش أني لقيت منه ترحيبًا وتأييدًا لي ما دام الأمر متعلقًا بقناعة شخصية، وأنا أعرف ما أنا مقدم عليه.. غير أن اليوم الآتي حمل وجعًا صادمًا؛ فقد اتصل بي أخي الثاني يخبرني رفضهم لهذا الزواج، مما سبب مشادات كلامية معه لدرجة أني أنهيت الاتصال ورفضت استكماله.

عندما التقيت جنا يوم الأربعاء من الأسبوع نفسه أخبرتها بالمستجدات بعد مكالمة أخوي، وكنا معًا قلقين من أبعاد هذه الإشكالية؛ مما استدعى الاتصال بالعمة خلال جلستي معها لتكون وسيطًا بين وبين أهلي لمعرفة أسباب الرفض والتراجع عن موافقتهم على ارتباطي.

توقف لحظةً، وأخذ رشفةً من فنجان قهوته، ثم وضعها جانبًا، وراح يعاود الحديث باستطراد خرج عن الموضوع لتوضيح بعض الرؤى:

– كلما كان في نقاشاتنا موضوعية تمكنا من الإحاطة بالموضوع وإشكالاته، ومسك خيوط الفكرة الكلية والأفكار الجزئية، ورؤية الموضوع بكل أبعاده الحاضرة والمستقبلة، وقرأنا قراءةً حقيقيةً السطور وما بين السطور، وكسبنا الآخر موافقًا أو معارضًا مكسبًا إنسانيًا، وحققنا فكرة النعمة في الاختلاف، لأنه في اختلافنا بهذه الطريقة نكون في حركة فكرية دائمة، وتفاعل إنساني حضاري يليق بما كرمنا الله به من عقل..

لكن؛ متى حضرت الذاتية، وصوت الأنا والنظرة الفوقية للفكرة كان إلغاء الآخر، وإلغاء الطرح الآخر ولو بقينا سنوات على طاولة الحوار،

وخسرنا – في الأخير – الوصول، وخسرنا الطريق السليم، وخسرنا الآخر بكل ما تحمل فكرة الخسارة من أبعاد ومخاطر..

وإننا نحتاج الكثير من الجسور للتواصل، ونحتاج الكثير منها للحوار، ونحتاج الكثير منها لكثير من الاحتواء.. جسور نصنعها وجسور يصنعها الآخر.. جسور تتصل بالضفة الأخرى، وجسور تحتاج إلى نظيرات منها لتكتمل الصورة..

نعم؛ هو محق في كل ما قاله، وأعرف أن تلك الإقصاءات هي من مهدت لقناعة تامة بضرورة الرحيل.. غياب التواصل والاحتواء يجعل المكان معتقل تعذيب للروح والأفكار، وقد يموت الواحد لو لم يبادر إلى حل ما.. ليس بالضرورة الاغتراب والرحيل..

هو اختار الرحيل بعيدًا.. لم أشجعه في فكرته لكني لم أجد ما أقنعه به كرفض لهذا القرار الذي سنعرف بعض انعكاساته في الآتي من بوحه كما أحس من رعشة شفتيه وتلك الدموع التي توشك أن تسجل حضورها، وتكبتها مقاومات عميقة لأجل أن يستمر سرد الحكاية كما كان مقررًا..

مشهد جمع بين باقة من المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية وكثير من الانتظار في ساحة مجمع التحرير، ووجوه بكل الألوان وألسنة بكل اللغات، وتيه يأخذه إلى مملكة البوح مع الذات..

(ديابوراما) بمختلف المشاهد والمشاعر الإنسانية بعرض ثلاثي الأبعاد يصنعه أناه مع تلك الموسيقى التي كانت تقتلعه من المكان وتكسر قانون الجاذبية وقانون الانتقال عبر الزمن وقانون المعقول..

كان يوم الخميس، وكانت التاسعة والنصف صباحًا عندما قرر

الاتصال بعمته ليعرف ما استجد بعد خبر الرفض، وتراجع أمه عن الدفاع عن اختياره، لكن انقطع الاتصال بسبب انتهاء الرصيد.

راح مسرعًا لشحن الرصيد مرةً أخرى، واتصل هذه المرة بأبيه ليسمع رأيه، فرفض بشدة انطلاقًا من جزئية الحمل والولد، لكن ناقشه وأكد له أنه يعي ما هو مقدم عليه، وأنه قرار: إما جنا أو لا زواج ولا عودة، وليعتبروه – لو خسرها – أنه ميت، فكان الأمر بالخطورة في نظر والده ما استدعاه طلب مهلة تفكير مجددًا. كان وحبيبته – بعد إعلامها بما جد – خائفين رغم تفاؤلهما.

الجمعة؛ الواحد والعشرون أكتوبر ألفين وأحد عشر صباحًا اتصل به والده موافقًا أخيرًا أمام إصراره على الارتباط بجنا، فكان الخبر مبهجًا ومخففًا عنهما الكثير من العبء. وفي المساء بعد ساعات من العمل وفي حدود السادسة تقريبًا اقتنى علبة من الكعك ليتوجه بها إلى الشقة، ليرتب نفسه للقاء أهل حبيبته.

على مشارف البيت راح يتصل بجنا ليعلمها أنه وصل إلى بيتهم، فكان في استقباله والدها، ليلتحق بهما فيما بعد زوج عمتها، كونه أكبر سنًّا من والدها فكان مفوضًا للحديث في موضوع الارتباط بدلًا من والدها في كثير من الجزئيات وخصوصًا إدارة الحوار. ليصلوا أخيرًا إلى توافق مبدئي وتقبل من الجانبين، غير أنه كانت متاحةً له فرصة مراجعة شروطهم التي كان باطنًا موافقًا عليها مسبقًا، لكن أجاب مطلب والدها بالتفكير والمشاورة في الأمر.

بعد مغادرته بيتها دون رؤيتها ولا رؤية أمها اتصلت به حبيبته تخبره

ارتياح أهلها ونجاحهما المشترك في تخطي أولى عقبات الارتباط بيسر وتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

اتصل زوج عمتها بوالده ليعطيه فكرةً عما دار في مجلس الخطوبة واستشارته في موقفه، فأعلمه أنه راض كل الرضا بهذا الارتباط وبما رضي به ابنه.

الجمعة الموالية كانت جمعة تأكيد وترسيم الاتفاق. في ذاك المساء تناول وجبة عشاء في بيتها، والتقى أخاها وأمها، وكانت جالسةً في مقابلته بصمت.. الطريف الذي ختم هذه الأمسية أنه صافح خطيبته وهو يودعها مصافحةً لاقت تعليق الوالدة كونها حملت الكثير من المشاعر الدافئة.

قام من مكانه وأخذ فنجان قهوته يمسكه بيمينه ويضعه على شماله، وينظر عميقًا في ذاك الأفق البعيد من السماء المترامية الأطراف حد العجز عن الإحاطة بها، وطلب مني ألا أدون شيئًا يخص ما سيقوله عن تلك الصعوبات التي لاقته من أجل استكمال إجراءات العقد بين الجزائر والسفارة الجزائرية ووزارة العدل ووزارة الخارجية والشهر العقاري في ظل عدم توضيح المطلوب من الأوراق بدقة ورفضها في مرتين متواليتين وكثير من التأخير بسبب تغيير الحكومة في ظل الأجواء العامة التي كانت تعيشها مصر في ظل ثورة يناير، والغضب المصعد كل مرة..

كنت أستمع إليه وأتابعه حواراته كي أعرف كل جزئيات الحكاية، وأعرف ما يجب أن أدونه وما يجب أن أسقطه كونه لا يقدم الكثير للنص، أو يُعْتَبر من الخصوصيات العميقة التي لا ضرورة لإعلام العالم بها..

×××

المجمع العلمي المصري من أعرق المؤسسات العلمية في مصر، وكان تأسيسه في العشرين من أغسطس العام ألف وسبعمئة وثمان وتسعين بقرار من نابوليون بونابارت ... وضم مئتي ألف كتاب من بينها أطلسًا عن فنون الهند القديمة، وأطلسًا باسم مصر الدنيا والعليا مكتوب عام ١٧٥٢، وأطلسًا ألمانيًّا عن مصر وأثيوبيا يعود لعام ١٨٤٢، وأطلس ليسوس الذي امتلكه الأمير محمد علي ...

لكن هذه التحفة الحضارية والثقافية والعلمية والجمالية التهمتها النيران الجاهلة الظالمة السبت؛ السابع عشر من ديسمبر ألفين وأحد عشر.. إنه الاعتداء الجاهل على العلم، والجريمة القبيحة ضد الذاكرة المصرية والإنسانية ...

هذه الواقعة التي حدثت في ظل ما سُمِّي بأحداث مجلس الوزراء، وبسبب الوضع الأمني المتردي في مبنى مجلس الشعب وأعمال الشغب والمواجهات الدامية؛ كان لزامًا التأكد قبل الانطلاق من كون وزارة العدل لم تغلق أبوابها، ومعرفة الشوارع الآمنة للوصول.. وقد كان ذلك؛ وتم المضي بعد الاطمئنان..

إنه اليوم الذي تم فيه تحرير وتوقيع عقد الزواج رسميًّا؛ لتكون جنا زوجة بطلنا على سنة الله ورسوله شرعًا وقانونًا..

×××

- ٦ -

ارتشف رشفةً عميقةً ووضع فنجانه مكانه الأول وجلس مرةً أخرى..

- وحيث إنها زوجتي فإن البوح صار يجد مبررات أقوى، وصارت مشاعري تتأجج تحت إشعاعات ابتساماتها وتلك اللمعة في نظرتها.. فرحت أكتب لها بعض النصوص أدونها في متفرقات لأجمعها فيما بعد تحت مظلة الرواية.. من كتاباتي لها في مساء متخم بالشوق هذه الفقرة:

مساؤكِ عطر من بساتين الشوق من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب.. مساؤكِ دواوين عشق من أقصى الأبجدية إلى أقصاها.. مساؤكِ ذاكرة متخمة بك من أقصى نقطة في الذاكرة إلى منتهاها..

كانت تحس أن لساني فُكَّت عقدته أخيرًا، وعدت ذاك المحب العاشق المجنون الساحر بحرفه في مساءات البوح، وكانت تحس بأني لم أعد أهاب الكلمات، وأن الصور صارت تأتي طواعيةً أكثر لأجلها.. كيف لا وهي الحبيبة التي كسرت كل منطق لأجلها وجازفت برصيد ضئيل من نسبة النجاح لأكون أخيرًا زوجًا لها، فلم أكتم ما يتقد داخلي من شوق يكفي كل الشتاءات دفئًا وحبًّا..

في صباح كان لا بد أن ألتقيها فيه اتصلت بها ورحت أرفع لها أشواقي: صباح الخير والأمل والسرور.. باقة ورد جوري في يدي، وفي الأخرى ماء من الجنة ليغسل قلبك وروحك، وفي قلبي الكثير من الأماني الرقيقة، ورسالة مكتوبة: أتمنى لك كل السعادة، وعلى ظهرها كتبت: أتمنى لقاءك.. ومعي لك ذاكرة تبدأ بصورة وتنتهي بحكاية؛ عطرها وبريقها صنعهما حضورك في حياتي.. صباح الرقة والجمال..

والتقينا في مكاننا المفضل لشرب قهوتنا، وقلت لها: لم أشرب قهوتي بعد.. كنت أنتظر قدومك.. فأنا مشتاق لرشفات من شفتيك تدوخ حزني وتسقطه من يومي.. كم لذيذة قهوة تلامس شفتيك في مساء متخم بالجمال.. فنجان واحد يكفي..

وكنت طلبت في البداية فنجان قهوة واحد ليجمعنا معًا بما أردت البوح به حتى امتلأت عيناها دموعًا من فرحة اللقاء وفرحة الكلمات، ثم احتفلنا بعقد الزواج بنسخته الجزائرية التي كانت آخر إجراء في توثيق زواجنا.. في رحلة العودة كانت تحتفل معنا السماء بمطر رقيق رقة الحب الساكن في قلبينا.. وكتبت لها في مساء العودة:

كان مساءً ولا أشهى! كيف لا والمطر كان يعانق المدينة ويعزف مقطوعته المحببة باللحن الأكثر إدهاشًا لنا أنا وأنت؟! كنت أسير إليك بخطوات كلها شوق، والمطر يزيد الشوق دفئًا وعذوبةً وأنا أحاول حماية باقة الورد كي تصلك بكل رونقها، وبكل سحرها وبكل إبهارها..

التقينا.. كنت في منتهى الإبهار بذاك الندى الذي ارتسم على وجنتيك.. حتى الصدف جمعتنا في يوم ماطر.. كأن الأقدار تجمعنا في فصل هو الأشهى عندنا ليزيدنا جمالًا وروعةً.. كنت تصرحين بمشاعر متخمة بسعادة اللقاء: «كم أود الصراخ بقوتي فرحةً بهذا الطقس وبهذا اللقاء.. وبهذه المصادفة»..

الشتاء والمطر: بينهما علاقة حب قديمة؛ تليق أن تُغَنى وأن تُرَتل شعرًا!

×××

نظر إلى القهوة وقال لها: اكتفيت بمرارتك.. الآتي لا يستحق السكاكر،

وراح يكمل بوحه بعد كوب ماء انسحب بخفة ليتناوله ويعود ليجلس مكانه، وراح يسترسل بعذوبة بوحه:

جمعنا التاسع من أبريل العام ألفين واثني عشر على طاولة غداء.. جلست أمامها بسعادة، وناضلت أن أكون أمامها بدقة.. بدأنا تناول الغداء.. كنت أنظر إلى عينيها اللامعة بمشاعر مسكوت عنها، ووجنتين تعكسان نبضًا رقيقًا عليهما، وشفتين مرتعشتين خجلًا ورقةً وهمسًا صامتًا..

كنت أتنقل بين عينيها ووجنتيها وشفتيها وأنا أشعر بالسعادة وأنا معها، وبالغيرة من العالم كله الذي يشاركني النظر إليها.. كنت أضع لقمة الأكل بين شفتي وأنا أنظر إليها، وعندما تلتقي نظراتنا أضم شفتي برقة لغتها الصامتة؛ فتحس بالمشهد، وتخجل وتحمر وجنتاها، فتزداد حلاوة الأكل في فمي..

عندما أشتاق إلى عينيها أقدم رجلي تحت الطاولة لتلامس قدمي قدمها برقة فتنتبه لرغبتي في تأمل عينيها، فتتلاقى عينانا في رجفة تنعكس في بريقهما، ويعلو المكان نبض تفضحه الوجنتان ورعشة الشفاه.. يصبح الأكل ألذ وأنا أنظر إليها أكثر وقلبي يرقص على موسيقى اسمها..

بعد الغداء قدمت لها باقة ورد وقصيدةً احتفالًا بعيد ميلادها، ورحت أسمعها ما كتبته بنبضي:

في عيد ميلادك حبيبتي ذهبت للتسوق في محلات الحلم والأمل. توجهت إلى شارع الورد. كنت منبهرًا بذاك السحر والتناغم بين أشكال الباقات المختارة وديكور المكان. وتلك الموسيقى الكونية المنبعثة من حناجر الحساسين..

مشيت بين أروقة المحل، وتوقفت عديد المرات لأصافح روحك وأتنفس عطرك وأبحث بين تفاصيل المكان عن عطور تلتقي بعطرك الزاهي في ذاكرتي وروحي. انتقلت إلى جناح ورود الحياة، ربما سُمِّيت هكذا لدلالات شاعرية فيها..

بدأت في اختيار مجموعتي لك بأن اخترت منها وردةً صفراء. أمسكتها بكلتا يدي وكأني بها تنبعث منها خيوط السعادة لتداعب قلبي كأشعة شمس وتتنبأ بأحرف القصيدة. تنشقت عطرها، وفي لحظة جنون قبلتها، فوجدت عطر شفتيك فيها..

سرت وأنا أبتسم لما اكتشفت جنون ما صنعت. كنت أمرر يدي على شعري وأتلمس في المارين ردًّا على سؤالي: هل أحد لاحظ فعلتي المجنونة؟

عندما أخذتني الخطوات مشيًا إلى الأمام شدني لون من بين أحب الألوان إليك: إنه الأحمر القاتم بكل ما يحمل من رمزية. أسرعت الخطو نحوه. قرأت أعلاه: ورود الحب. أخذت أول ما صادفته عيناي: وردة كانت ترصدني بعطرها وشكلها ونسقها المميز. ذكرتني بكل ما يميزك عن كل الإناث.

اهتز وجداني وأنا أمسكها بيمناي وفي اللحظة نفسها أسمع نبض قلبك من خلال تموجات العطر الذي يتواصل تدفقه إلى روحي. كنت أفتش في قواميسي عن أي شيء يليق كي يُقَال عن تلك اللحظة التي استقبلت فيها كلمة أحبك لأول مرة. لي رغبة عميقة جدًّا في أن ألتقيك الآن لأقول لك أحبك. ربما لن أقول شيئًا أمام ارتباكك أمام انبهاري بجمالك. سيكون حينها للقلب حديثه ولرجفة الشفاه وهي تحاول قول شيء قول أكبر أثرًا من كل الكلمات..

لبراءتك ونقائك وصدقك اخترت الأبيض شعارًا لأيامنا القادمة، واخترت وردةً بيضاء. كان البياض ساحرًا وآخذًا للب في جناح ورود لقلوب بيضاء. كان وقوفي أمام الأبيض الشامخ بتاريخه ومعناه دلالةً على عمق ما بيننا..

أردت اختيار شيء إضافي يكون ذا طابع استثنائي في لحظات الحب اخترت من جناح الورود النادرة وردةً زرقاء. زرقة لطالما سحرت الشعراء وألهمت الأدباء وأخذتهم في موكب خرافي في رحلة تستمد من زرقة البحر والسماء قصيدةً لكل الأزمنة المتبقية للحب..

أضفت الوردة الزرقاء تعبيرًا عن الأمل في تحقيق الممكن والمستحيل لأجلك. بعد تكوين باقتي لأجلك ها أنا أقدمها، وأقول لك: كل عام وأنت حبيبتي، وكل عام وأنت ملهمتي.. أحبك.

سألتني عيناها، ونقلت السؤال شفتاها المرتعشة: ما مدى جنونك؟

قلت لها: أسطيع المشي فوق الماء والطيران ورسم مملكة بأكملها وكوكبا خاصًّا وفعل كل الممارسات المجنونة: الصراخ والرقص وتحطيم ما حولي وإعادة بنائه كما أحب؛ صور صغيرة لجنوني، وبعض الدموع التي تغسل أخطائي وتعيد بعث الطفل وكثيرًا من الأماني والحب والجنون..

قالت عيناها: جنونك غريب الأطوار!

قلت لها: نعم؛ هو كذلك، فبجنوني أسطيع أن أسافر إليك عبر الحرف وعبر ترددات النبض وألتصق بسقف غرفتك لأتأملك وأنت تكتبين لي، أتشكل كجني أو كملاك كي أكون بقربك أخطف بعض تفاصيلك للذاكرة، وعندما تخرجين لتتأملي روح الطبيعة من شرفة غرفتك سأطير إليك

عصفورًا أحوم حولك وأرقص بقربك..

سآتيك نورًا بسرعة الضوء، وتحت ابتسامتك أنقسم ألوان طيف؛ كي تري كل ترددات نبضي وحرفي، وأنا أنعكس فوق وجنتيك أمنحك دفئًا يكفيك للسنوات القادمة.. مدي يدك بخجل إلى خدك لأتبعثر كمياه شلال، وأرتسم كأغرب وأروع شلالات العالم..

لامسي مائي لأتبخر فجأةً وأصبح غيمةً.. بعدك عني يشعرني بالبرد فأنزل مطرًا على شرفتك.. مدي يديك إلي لامسيني عند السقوط لأنعكس فوق يديك موسيقى ونوتات مرئية، عندما ترتفع حدًّا ما تنفجر ألعابًا ناريةً كاحتفالية مجنونة..

قالت لي: رائع أنت حبيبي!

فقلت لها: أنت الرائعة بحضورك وباستفزاز هذا الكم الهائل من الحرف الذي يمطر حبًّا كلما أتيتِ، كأنك الورد وأنا السحاب الباحث عنك بين ثنايا أرض واسعة..

قالت لي حبيبتي: في يوم قريب من هذه الساعة، ومن أبخرة اعترافاتنا سأستحم لأصبح أكثر نضارةً وألقًا كي أليق بقلبك المفعم بالحياة والحب..

قلت لها في ختام أمسيتنا ونحن نفترق: أعشقك حد البكاء، وحد المجازفة، وحد الموت.

قالت لي: أعشق كل ما فيك..

×××

- ٧ -

أحلم بخطفك إلى مملكة القمر لأراقصك الليل كله.. ألمس يديك بقدسية حبنا.. أتأملك وأغرق في كل ذرة تفصيلية فيك..

أتوه في بريق جبينك اللامع، وأتعلق بعض الوقت في حاجبك الأيمن من أقصى يمينه إلى أقصى شماله، ثم أنساب كنسمة على الحاجب الآخر من أقصاه إلى أقصاه..

أطل على عينك اليسرى أقبلها، وأنظر إلى بريقها فتشتد نبضات قلبي.. أشتاق إلى العين الأخرى.. أركض فوق الرمش، وأقفز إلى طرف الحاجب لأرمي نفسي على الحاجب الآخر..

فجأةً؛ أفقد توازني، فأتمسك برمش عينك اليمنى.. أتنفس.. أتأوه.. أتوه في عينك الأخرى.. أقبلها الأخرى.. أنظر إلى وجنتك البيضاء المدورة المملوءة بالسحر وأقفز بجنون فوقها.. أحضنها بجنون.. أقبلها بلهفة، وأنعم بنعومة الملمس..

أنظر إلى أنفك الرشيق.. أقترب منه.. أحضنه كدميتي التي لم أمتلكها يومًا.. أطل على منفذ الهواء، وأحلم أن تستنشقيني كي أعيش في داخلك بين خلايا جسدك، فأنتقل كالدم وكالهواء.. ألمسه برقة فيشدني انعكاس ضوء على الوجنة الأخرى..

أركب شوقي باتجاهها لأتمرغ فيها تمرغ المخمور بروعتها.. أقبلها الأخرى بنهم الجائع للقبل.. أنزلق على تفاصيل خدك متخمًا بالشوق أقابل آيةً أخرى: ثنائية سكر لا تنتهي.. شفتان ساحرتان فاتنتان.. أمر فوقهما كالنسمة.. كالرعشة.. أفترش السفلى وأتغطى العليا في لوحة مجنونة..

ألمس أسنانك البيضاء، وأداعب الشفتين اللتين انطبقت علي بلذيذ القبل تبللني بخمرة الجنون.. أمنح نفسي جنون اللحظة لأقبل آية السحر الكبرى في وجهك بكل رقة اللقاء وخجله ورعشة المصافحة الأولى..

في لحظة ما؛ تلامس يدك المرتعشة شفتيك فأسقط فوقها مغمًى علي.. أفيق بلمسة أصابعك، أحضنها أصبعًا أصبعًا، وأنزلق عبر ساعدك إلى مرفقك.. أقف أحضن ذراعك الأبيض.. أحضنه بجنون ولهفة، وأرمي بنفسي فوق خصلات شعرك أتسلقها خصلةً خصلةً..

يشدني الشوق إلى عطر وجهك.. أمر بالبياض المنبعث من بشرتك مما كُشِف لي، فأزداد سعادةً بك وبسحرك.. وعندما أصل شفتيك أشهدهما جنوني بهما بقبلة عميقة عمق المساحات التي تأخذني إليها حالمًا، وأمر على وجنتيك أحضنهما..

أنزلق من وجنتك لأسقط كدمعة، فأكبر بحجم طفل ينام على صدرك يشتكي غربته، فتهمسين له: لا تخف أنا بقربك.. فأنام على همسك متناسيًا كل وجعي سعيدًا بالنظر إلى وجهك الغالي غاليتي وأميرتي وغزالي..

داهمت خجلها بنصي هذا وأنا أقدم لها كوبًا من اللبن وحبات منتقاة من التمر في أول مساء جمعنا تحت سقف واحد، ثم رحت أقول لها وأنا أداعب بعض تفاصيلها:

جبينك؛ مرسوم على تفاصيله قدري بأن أحبك، يشع بأمل كُتِب بين سطوره: هنا تسكن أنثى برقة تعجز عن وصفها القصائد!

أنفك؛ الذي أُغْرِم بعطري يستحق الإشهاد له بأنه السبب في استفادتي

الأمل في مصداقية بساتيني وعطوري التي أصنعها في الصباحات والمساءات بنبضي وحرفي!

وجنتاك؛ كم أشتاق لضمهما بيدي ولمسهما برقة نبضك وكتابة اعترافات بسحرهما بحبر شفاهي الخالد بحبك!

أذناك؛ كم سمعت همسي؟! كم تستحق همسي لأجلهما وهما من كانا أوسع أبواب دخولنا مملكة الحب؟ دعيني أشهدهما حبي بأرق همسات الحب!

شعرك؛ الذي يتراقص على لحن موسيقى عشقي لك يثير رغبتي في مداعبته شعرةً شعرةً، ولمسه بكل ما تحمل اللمسات من حب وعاطفة!

شفتاك؛ عسلية وردية حالمة تلهمانني لأكتب أحلامي على الورق؛ كم همست لي؟ وكم تستحقان استنزاف كل مشاريع التقبيل في تاريخ رجل يهواك؟!

تفاصيل صنعها وجه ملائكي؛ كم أغراني بالكتابة والجنون والرقص عاريًا تحت المطر لأجل كتابة قصيدة بلون المطر؟ بعطر المطر؟ بلحن المطر؟!

×××

وفي الصباح التالي كنت أوقظها برقة تليق باللحظات الرقيقة، وبأول التقاء لليل بالنهار وهي معي، ورحت أهمس لها:

صباحك أنا، صباحي أنت، وصباحنا نحن؛ بمزيد من الاحتلالات لبعضينا.. صباحنا نحن؛ بمزيد من التوحد.. صباحنا نحن؛ طفلان مشتاقان بمنتهى البراءة ومنتهى الشقاوة الساكنة فيهما.. صباحي أنا متخم بعطرك، وصباحك أنت رقيق بعطري يا أميرة الصباحات؛ صباح الخير..

رحت بهذه الكلمات أوقظها وأقبل جبينها بعمق، فابتسمت في لحظة تثاؤب واحتضنتني برقة كاملة وقالت: أدامك الله لي يا عطر الصباحات والمساءات.. يا أروع معزوفة للحب الغالية.. يا ملاكًا يجعل من حلم اللقاء قصيدةً.. ومن اللقاء أجمل حقيقة..

ابتسمت لشاعريتها التي تذيب حجارة الصمت وضممتها إلي، وقلت: هنا نرسم الذاكرة بألوانها.. هنا نتنفس هواء آخر بعيدًا عن جلبة الخارج.. بعض الجنون هنا اكتشاف لدواخلنا، واكتشاف للآخر، وتكملة لحكاية لم تُقَل وتبحث عن أحرف لتُقَال في مسرح الحياة ...

×××

خلال ثلاثة أيام عسل اختصرت شهرًا مع تأخير مقداره شهران سافرنا إلى الإسكندرية، حيث اكتشفت مدينةً جديدةً تستحق المغازلة خلسةً وعلنًا ... وبين حبات رمل البحر الذي جلسنا عليه قلت لها: يغار البحر من مشيك فوق الرمال، وأنا أغار من غيرة البحر ومن لمسة الرمال، وأغار من الشمس تلتهم وجنتيك بالقبل وأنا ها هنا صريع قصيدة تكتبني..

فضحكت وقالت لي: نصيبك مني ليس الآن، صبرًا أيها المجنون!

×××

الفصل الخامس

- ١ -

تأوه آهةً عميقةً وذكر تاريخين مبهمين بالنسبة لي: الخامس عشر من فبراير والسادس عشر منه العام ألفين وثلاثة عشر.. ثم ذكر ساعتين مختلفتين: الساعة الثانية ظهرًا، والتاسعة ليلًا.. ثم ذكر اسم يوسف.. وسقطت دموعي مع دموعه وهو يرتعش بين ذراعي..

بعد رعشة البوح – التي أضاعتني بين عارضتي تاريخين وعارضتي زمن امتد إلى واحدة وثلاثين ساعةً – عرفت أن يوسف كان أول ثمرة من حكاية حبه التي منحها إياه الله في مساء جمعة منقوصة الفرحة، وأخذها منه مساء اليوم التالي، ودُفِن في ليلته في جو مملوء بالوجع في مدى ممتد بين بلدين.. كان الخبر الموجع ممتد الأثر إلى كل من يسمع ذلك من أحبائه ابتداءً من أمه التي فقدت الحفيد الأول من الابن الأول..

×××

بعد أسابيع متوالية احتقن الوجع داخلي حدًّا؛ كان لزامًا علي – أمامه– عقد نية الرحيل ومباشرته – في أقرب فرصة – من الأماكن التي تضج بالوجع وبذرات الاغتراب الجديد الذي بدا يطفو بسبب أحداث أخرى يطول شرحها في عجالة بين دفتي حكاية أكبر من الحديث عن أزمات تمر بالروح لتثبت أنها غريبة في هذه الأماكن الجديدة..

قد تصدم هذه المصارحة من تعودت عليهم الروح، وجمعتهم ساعات أقل ما يُقَال عنها أنها رائعة روعة المحبة البريئة التي ألفت بين قلوبنا..

لكني فعلًا وجدت في مدينتي تشققات في تربتها، وإزهارًا لبذور الغربة التي لم أجد طريقًا لاقتلاعها لأن جذورها عميقة جدًّا، ولا يكفي قطع أغصانها الظاهرة بابتسامات عابرة لأنها تستمد حياتها وانبعاثها من العمق الخصب بدوافع انتعاش مشاعر الاغتراب من جديد، لكن بألوان قاتمة جديدة تزداد عتمتها كلمسات ريشة غاضبة تتحدى أحيانًا الألم بلمسات مشرقة، ثم تصرخ غضبًا فتملأ الأمكنة وجعًا وصراخًا وفوضى وسوادًا يشبه الليالي الباهتة التي تكاثرت كالطاعون..

كان لا بد – على الأقل – من أخذ أنفاس جديدة في أماكن أخرى، ولم لا بنكهة ابتسامة أمي وضحكات إخوتي الصغار، وكثير من أحاديث مبروك ومفتاح، وبعض من أصدقائي الذي مازالوا يحتفظون بنقاوة اللقاء دون بروتوكولات ودون فواصل عميقة تشكنني أني الحاضر في وقت لا يناسب، أو المتحدث في وقت لا يناسب..

لا بد من العودة إلى الجزائر.. كان قرارًا حاسمًا لا مجال للرجوع فيه مبدأً وتاريخًا.. واقترنت الفكرة بمعايشة أجواء رمضان العام ألفين وثلاثة عشرة مع الأهل والأحباب وأجواء العيد..

×××

كانت الزيارة الأولى رفقة الزوجة.. كان لقاءً يحمل الكثير من الشوق في قلبي وكثيرًا من الخوف من قلبينا معًا.. أسئلة كثيرة تخص الاحتواء داخل أسرة غبت عنها أزيد من سنة ونصف وعدت إليها بزوجة ونعي حفيد..

كان المدهش أن ندخل البيت تحت زغاريد الأم والخالة بعد تناول اللبن

والتمر والدخول بالقدم اليمنى كأن بعض طقوس الفرح أُجِّلت لتصنعها أمي بكل الحب والروعة..

زيارات عائلية متبادلة وفرح عم كل الأيام الأولى لتنقلب الضحكة وجعًا.. ويكبر الوجع حتى يصبح رصاصًا يفتح الماضي بعنف ووجع..

حيث إن الفتاة في مجتمع قروي محافظ – بعد فترة دراسية قد لا تصل إلى المرحلة الثانوية – لا تخرج إلا إلى ثلاثة أماكن: الفرح أو الموت كمناسبتين اجتماعيتين ملزمتين أحيانًا أو المستشفى في الحالات الصحية الطارئة أو القبر.. عندما كانت وجهتنا إلى العاصمة لاكتشاف عاصمتنا وبعض الأماكن التي اشتقت إليها؛ وأردت أن أعرف شريكتي بها كساحة أودان وشاطئ الرميلة ...

أتى الاستنكار فادحًا على هذا الخروج رفقة الزوجة باعتباره منافيًا للعادة ومتجاهلًا إذن أفراد الأسرة، ثم أتت القطيعة والانقطاع عن الحديث حد طرح استفهامات عميقة من طرف جنا بنية الإصلاح بيني وبين أبي وأخي..

أسئلة كشفت كثيرًا من المسكوت عنه والمحسوس مع كل المقاومات تحت بند حسن الظن.. كان سوء الظن هو الحقيقة.. لأن الروح الشفافة تلمس وتلامس ما يدور في دواخل من بقربها..

رفض الزواج، رفض الزوجة، وفتح النار علي كمثال للشاب العشوائي المتهور غير المتبصر بالعواقب والقرارات الحاسمة والقرارات الأقل أهميةً.. الشاب الفاشل في صنع نفسه.. الفاشل إجمالًا.. ذاك الأناني الذي يرحل في وقت حاجتهم إليه.. ولو كان يقيم لأهله اعتبارًا لأعاد الأمور إلى أصلها

قبل الرحيل؛ أي أن أنفصل عن زوجتي طلاقًا يثبت لهم ولائي وانتمائي والعودة إلى أحضانهم التي زرعت رأسًا وابتداءً كل الدوافع العميقة لهذه التجربة من الغربة..

كان مطلب الطلاق قاسمًا لكثير من الأماني وفاتحًا للحديث الجاف – جفاف الحلق وأنا أبوح بهذه المشاهد – عن كل المسافات الروحية التي صنعها استهجانهم لي قديمًا وحاضرًا..

كيف لي أن أنسى الماضي وهو يجلس بجواري ويتراءى لي بتفاصيله كلها دون استدعاء ودون إيحاءات سلبية أُنْتَقد عليها؟! إنه يبتسم ابتسامة المنتصر على كينونته الأقوى حضورًا بكل الأتربة التي عانقتها بعد محاولات للدفن والوأد كي أتنفس..

وبعد كل إسكان للوجع في مقبرة الذاكرة ينبعث من جديد ساخرًا من محاولة إماتته له ويتجلى في مشهد من الوجع والخوف على الآتي ومن الآتي كفلم رعب يستهدف كسر المساعي في انطلاقات عميقة لآفاق أفضل بعيدًا عن جاذبية الأمس..

بكت حبيبتي، وثارت أمي مدافعةً عنها تحضنها إليها بحضن الأم للبنت الوحيدة.. لأمنية كانت تحلم بها لبكرها رغم اختلاف التفاصيل عما أرادت؛ لكنها أحبتها بكل شفافية الحب المملوء بعمق الأمومة..

بكت وأبكتني وعانقتها أحتويها..

×××

«جسدي متعب يتآكل كأبيات قصيدة تحت المطر، تنسكب أحرفها، ألاقيها بكفي، وأسقيها ورود ابتساماتك فتزهر قصيدةً أخرى»..

هكذا عبرت لها عن مشاعري في ليلة قمرية ممطرة.. عابثة بصمتنا وذاكرتنا.. ثم قالت لي: لا بد من الرحيل.. كانت تقرأ في داخلي الوجع الذي لم يعد يُحتمل وتلك الدموع في حضرة المكان الموبوء بالوجع..

تغير تاريخ الرحلة والعودة إلى مصر.. كان هروبًا ثانيًا من وجع الكلمات الطاعنة والوجوه الشاحبة..

هل قدر أن نبقى هاربين من حاضرنا إلى غد معتم؛ نزينه ونضيء بعض دروبه بأحلام مرهِقَة أكثر من حقائب سفرنا؟

هل نبقى هاربين من الماضي باحتضان أنفسنا كطفل معاقب في زاوية الغرفة يحتضن نفسه خوفًا من كل العقوبات التي تترصد روحه وأمانيه وجسده؟

متعب جدًّا..

رحلت مجددًا.. بدموع مكسورة وقلت لهم:

– كونوا بخير!

هل أكون بخير وأنا أدعوهم أن يكونوا كذلك؟

هل لمعرفة أو إحساس بأني لن أكون بخير تمامًا ما دمت لم أصنع آخر حريق للوجع القديم؟!

×××

الرابع عشر من أغسطس العام ألفين وثلاثة عشر كانت رحلتنا الرابطة بين الجزائر العاصمة والقاهرة لنجد الأوضاع الأمينة في حالة من التأجج والتوتر لاقترانها بأحداث فض اعتصامي رابعة العدوية والنهضة، حيث قامت قوات الشرطة والجيش بالتحرك لفض اعتصامات

المعارضين لانقلاب الثالث يوليو في مصر، والتي أزاحت محمد مرسي عن سدة الحكم ليتولى المشير عبد الفتاح السيسي إدارة المرحلة الانتقالية نحو انتخابات مبكرة..

الاعتصامات الرئيسية كانت في ميدان رابعة العدوية في القاهرة وميدان النهضة بالجيزة، واختلفت التقديرات حول عدد القتلى والمصابين في الأحداث؛ حيث جاء تقرير وزارة الصحة المصرية مصرحًا بسقوط ستمئة وسبعين قتيلًا ونحو أربعة آلاف وأربعمئة مصاب من الجانبين..

وقد وصفت منظمة (Human Rights Watch) ما حدث بأنه يدخل في خانة الجرائم ضد الإنسانية، وأخطر حوادث القتل الجماعي غير المشروع في التاريخ المصري الحديث، بينما نفت الحكومة المصرية، ومنظمات حقوق الإنسان المصرية هذا التقرير ووصفته بأنه ساع لزيادة الاحتقان في الساحة الأمنية والاجتماعية المصرية..

وحيث إني لا أملك مفاتيح حقيقة ما حدث فأنا أرخت للواقعة لاقترانها بيوم عودتي إلى مصر، ولا أملك ما يؤهلني للإدلاء برأي فيها..

كان الخبر منقولًا على شاشات التلفزيون المحلية والعالمية وكان أهلي متابعين للحدث متابعةً قلقةً ويسألون المرة والأخرى عن أبعادها العامة والخاصة، لكني كنت أخبرهم أن الأمر سيكون على ما يُرام بإذن الله، وأني بخير وأني بعيد عن بؤر التوتر..

وتتابعت الأيام ...

×××

وُلد أحمد في الرابع مارس ألفين وأربع عشرة في مستشفى خاصة

بعد عملية قيصرية، ودخل الحضانة استعجالًا لأزمة تنفس أخلطت كل أوراق الفرحة وأجلتها حد الإلغاء..

كنت أهيم على وجهي اليوم كله أبحث عن حضانة خيرية بعد أن سمعت أن الطفل يحتاج أزيد من ثلاثة أشهر من العناية، والحضانة الخاصة تستهلك من المال ما أعجز حتى عن كتابته هنا..

كنت إن تغديت لا أتعشى وإن تعشيت فحتمًا لم أتغدى، وكان الفطور ملغى من كل الحسابات.. كانت ظلمة المكان رفيقي خروجًا صباحًا وعودةً مساءً دون نتيجة..

كان موجعًا جدًّا أن ترى نفسك عاجزًا على إنقاذ الفرحة الثانية المهددة بالزوال والأولى الممكنة أن تعيش.. فقط تحتاج فرصةً.. هل تأتي هذه الفرصة؟ وهل تفي ليكون بخير؟

في اليوم الرابع تلقيت اتصالًا يخبرني بجاهزية حضانة (السلاب) بمصر الجديدة لاستقبال ابني.. بعد نقله قِيل لي: لا تنتظر يوم خروج ابنك؛ فلا يهمنا كم يبقى هنا بقدر ما يهمنا أن تأخذه معك وهو بكامل عافيته.. طاقم من الأطباء والممرضات أشهد أنهم كانوا أروع ما رأيت في الوسط الطبي في مصر..

ثلاثة أشهر مرت والطفل يصارع ميكروبًا في الدم يقاوم حتى نبتسم فرحًا، ثم ينتكس حتى أعود مكسور الهامة والقامة والأنفاس والأمنيات والكلمات.. بكت الطبيبة في حضوري وهي تقول لي: لا أمل في حياته، إلا إذا قدر الله معجزةً؛ فهو القادر على ذلك، وما أمامنا إلا الدعاء.. مر شهر وأنا أنتظر مكالمةً تخبرني بوفاته..

وجاء ذاك اليوم صباحًا.. الثلاثاء الرابع من يونيو.. اتصلت الطبيبة على رقمي أنا لا على رقم زوجتي، وطلبت منها أن تكلمني أنا لا هي، فأحالتني الصورة المُتَخيلة أن أعدل جلستي والانتباه لما ستقوله: نزار؛ البقاء لله.. قلت لها صامدًا:

– ما هي الإجراءات المطلوبة وما يجب أن أفعله؟

قالت:

– حضورك فقط يكفي..

بعد شكري لها وإنهاء المكالمة نظرت إلى زوجتي التي كانت تنتظر بدموع.. تنتظر هي الأخرى إعلان الحزن رسميًّا كي تنطلق على وجنتيها بغزارة الفرحة المسلوبة منا ذاك الصباح.. قلت لها وهي بين أحضاني:

– البقاء لله..

مات أحمد.. ودُفن في مساء ذاك اليوم.. وأُغلِق فصل جديد لشبه فرحة تحولت إلى مأتم.. بعد أسابيع كنت أشتاق إلى زيارة فلذتي كبدي المدفونتين في تراب مصر.. لكن لم أكن أملك الشجاعة الكافية..

×××

في زحمة الشارع في وسط البلد كنت أسأل نفسي: أين أضعت نفسي؟ أين طموحي بالقراءة والكتابة؟ لم تعطلت ملكتي في البوح؟ لمَ لَمْ أعد أكتب؟ لمَ لَمْ أعد أصاحب الكتاب صديقي القديم والأوفى؟ أين رسائل أوراقي المهيجة لجنون القلم؟ أين ملهمتي؟

تذكرتك يومها ولم أجرأ على استحضارك في زخم الوجع والصمت كان لا يليق بي أن أستقبلك في حالة من الفوضى لا تليق بكاتب.

- ٢ -

بعد أشهر من هجران المقروء والمكتوب عادت إلى مدينتي رعشة القراءة والكتابة. لكني عدت إلى الثانية على استحياء؛ أدون السطر والسطرين في مناسبات متفرقة، وكأن الأوراق تعترض على تلك المراودة الخجولة من قلم البوح رغم رغبة الحديث، أو تصنع صنيع المتمنعات الراغبات؛ وتبحث عن مقدمات لذاك الزخم من تأجج الحالات..

لكن؛ كيف أغريها بتقبل ما يملأ داخلي من وجع الكبت والصمت؟ قلت في البداية إني سأبدأ بالقراءة أمامها، ربما تتحرك داخلها غيرتها من تلك الساعات التي تختلي بي فيها نصوص الآخرين في أجواء عميقة من كثافة الحضور والصور، وكانت انطلاقةً غريبةً بالنسبة لها أن تأسرني رواية ليلةً كاملةً حركت كل الشغف في القراءة..

الرهينة: رواية «زيد مطيع دماج» كاتبها بتميز وامتياز.. كيف لا؛ وهو أشهر كتاب القصة والرواية في اليمن! كيف لا؛ وهو من جعل المئة والسبع وسبعين صفحةً من السرد تخطف الروح خلال خمس ساعات استثنائية؛ أكملت فيها الرواية قراءةً وارتحالًا!

في الرواية مشاهد تصف تخلف الفكر الحاكم في الفترة المرتبطة بالنص، واستنزاف أحلام البسطاء واستغلالهم واستعبادهم لأجل ضمان ولائهم.

وفي هامش المعاناة تأتي حكاية حب تصمت أحيانًا تحت مقاومات لها دوافعها من الجانبين، وتنفلت في لحظات أخرى بين (الشريفة)[1] حفصة

١- الشريفة: يُطْلق الاسم على من تدعى نسبها إلى الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

وبين الدويدار[1] (الرهينة البطل)..

وعندما تحتدم الحكاية تأتي محاولة انقلاب على النظام الحاكم الجائر؛ فتحبس الأنفاس وتشد الذهن إلى الآتي، ليطرح القارئ الكثير من الاحتمالات تخص القصر والمدينة والبلد، وتخص بطلنا الرهينة وقصة حبه مع (الشريفة) حفصة.

وتفشل المقاومة والانقلاب لتتأجل آمال شعب مغلوب على أمره دون أن تُلْغَى من ذاكرته حريته التي ألفها وألفته، والتي تسري في دم كل عربي حر..

للدويدار صديق حميم يموت في آخر فصل، فيقلب مستقبل البطل، ويثير فيه رغبة التحرر إلى أقصاها. تمسك حفصة به وبمشاعره الجريحة، ولكنه – لفوارق في وجهات النظر والطموحات – يفضل حريته على أسر بطريقة أخرى.

كان هروبًا جارحًا مجروحًا نحو الحرية، ونحو أفق مجهول لكنه أرحب من ضيق القصر، وضيق قلوب أهله وشماتتهم واستغلالهم.

وتنتهي الرواية، وتنتهي القراءة أسفًا على حفصة وسعادةً لأجل الدويدار..

×××

لا بد أن نبحث عن آفاق أخرى تحررنا من وجعنا إن صار فوق تحملنا وحيلتنا لأجل التخلص منه..

قادتني الأسئلة إلى حالات من تأمل بدايات الرواية، والبحث عن منطلقات جديدة..

١- الدويدار: صبي حاضر البديهة يستخدمه الأمراء والحكام في قصورهم وجمعه: دوادرة.

جمعت ما كتبته، ورسمت مخططًا لسيرورة النص، واخترت أبعاد النص العاطفية والاجتماعية، وتركت العنوان جانبًا لم أفكر فيه ولم أستهلك طاقةً في تخيله: كيف يكون؟ طويلًا؟ قصيرًا؟ عامًّا؟ أو خاصًّا؟

كنت على يقين تام أن النص مهما رسمت مخططه لن يكون كما رُسِم في البداية، وأن الرسم الأولي ما هو إلا مفتاح للكتابة ودليل للانطلاق، ومع كل عقبة جديدة أجد منعرجًا يخرج بي عن فصل من فصول المخطوط إلى فصل ملموس حرفًا ومشاعرًا..

المهم أني كتبت ليلتها أزيد من عشر صفحات نهمة للبوح ولاجتثاث جذور الهجران.. وأثناء الكتابة صادفتني كثير من الأسئلة الاستباقية المتعبة.. رغم أن حينها لم يأت؛ لكني كتبتها احتياطًا ليكون نصيبها من الرؤية والتمعن حين اقتراب فترتها الزمنية..

×××

بعد ليال متوالية من البوح داهمتني انتكاسة صحية حملت كثيرًا من التقاطعات الغريبة.. صداع كان يفتت رأسي.. صراخ وأحلام تتهاوى كل ليلة.. آنيات ورد محطمة وقلب نازف حد الموت.. وقصائد تحترق صمتًا، وأخرى تنتحر هجرانًا، وكثير مني كان يموت..

بين حالتين مرضيتين كانت تضيع طاقة جسدي.. لم أكن أتحمل ثقلين بحجم المرضين وزيادة.. البرد عصف بجسدي واستمر أزيد من أسبوعين، وحمى الكتابة كانت هي الأخرى تعصف بالمدينة داخلي؛ فلا أقوى لا على حمل الجسد ولا على حمل الذاكرة..

كتبت في قمة الوجع: محموم حد التعب من تعبي وموجوع حد

الصراخ.. جسدي منهك وأفكاري متعبة من هذا الصداع، وأنفاسي تبحث عن أنفاس وقد خنقتها أرصفة الجليد وعواصف ما قبل الشتاء.. عيناي بالكاد ترى ما تكتب، وقلبي يئن من أوجاع الجسد ومن المسافات التي مشتها الروح ليلة البارحة بحثًا عن سكينة نوم هادئ..

×××

وعاودتني القطيعة مع الكلمات أزيد من أسابيع مكتظة بالتشابه ومكتظة بالألم..

في ليلة حافلة بالصمت فتحت شباك غرفة الضيوف ورحت أتأمل السماء وأبحث في نسائم ما بعد منتصف الليل عن تعويذة لأكتب.. تأوهت بصمت وقلت: موجوع يا أمي حد البكاء وكل الكلمات تخونني صمتًا وتكبرًا منذ زمن قبل هذا الصباح والمسافات بيننا شاسعة قاتلة كوجعي هذا..

عندما جلست قرب أوراقي أتأملها وأستحضر كلي في المشهد تراءت لي تلك الفوضى في كل شيء.. في جلستي.. في نبضي.. في مزاجي.. وبين يدي مسودة رواية، وكثير من المشاهد المتراصة بشكل مرهق؛ تبحث عن فرصة للخروج حروفًا وموسيقى..

كنت أتمنى لحظات صفو أستجمع فيها قواي، فقد أرهقني تشتتي.. أردت لحظات لأتنفس فيها بعمق، ولأتأمل فيها بهدوء ووضوح وتجل كي أفكر فيما أحلم بإنجازه وما يجب علي إنجازه.. تراءى لي ذاك المد الهائل من الزمن المسلوب مني..

إني أُسْرَق من نفسي، وتضيع الكثير من الأوراق في زحمة الفوضى والأحلام ومسودات المشاريع والخطط، وتضمحل إشعاعات الأفكار التي

تتوه في ظلال السطور التي لم تُدَون بعد..

×××

بعد فترة زمنية استعدت فيها حضوري ككاتب.. وبعد الكثير من الكتابة، وبعد الاقتراب من منتصف الحكاية أُفَاجأ أن الراوي لا يروق لي فقررت عزله، لأعيد صياغة مئة صفحة من الحجم المتوسط بنظرة جديدة بعد تعيين الراوي الجديد في مهمته التي أشتم منها رائحة المفاجأة الأهم وهي النهاية: نهاية الرواية!

البدايات من الصفر موجعة جدًّا عندما تقطع مسافات بالأميال الزمنية مشيًا حافي القدمين فوق الشوك تتنفس بعض العطر كمحطات، ثم تعود إلى نفس النقطة الأولى بكل الذاكرة المتخمة بالنزيف؛ لتسير الدرب نفسه (بالطبع باستراتيجية جديدة) بفارق زمني موجع عن نقطة الوصول في الزمن المراد الوصول فيه..

موجعة هذه اللحظات اليائسة والسلوى أن لكل أجل كتاب!

×××

في أول مساء خريفي العام الماضي حوالي الخامسة مساءً كنت في محطة مترو رمسيس[1] (الشهداء) بالقاهرة وبجسد مرهق وأفكار تعيش الفوضى في رحلة بحث وتعديل كي تخدم مشروع نصي القادم قادتني الخطوات لركوب أول عربة من المترو باتجاه المرج أين سأنزل في المحطة ما قبل الأخيرة.

١- اسم من أسماء فراعنة مصر، وكان رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشر في سلسلة حكم الفراعنة لمصر، وحفيده رمسيس الثاني الذي يُرَجح أنه فرعون موسى (عليه السلام).

بمجرد ركوبي وحيث أنه لا مكان لي وسط زحمة خانقة التصقت في ركن وفر لي عدم الاحتكاك بأي أحد والتوهان في رواية أقرأها لأحلام مستغانمي: «فوضى الحواس».

كنت مثلها وخلافها نعيش الفوضى لكن من نوعين مختلفين، فهي تبحث عن أنثى تعيرها جسدها لتكتشف رجل روايتها وتعيش اللحظة الإبداعية.. وأنا كنت أبحث عن فصل وبضعة فصول لروايتي فلي ثلاث فصول بدأتها على انفراد، ولم أكمل أي منها وأبحث عن أفكار تمد خيط الوصال بينها وفصلًا رابعًا يدفع الرواية إلى مزيد من التعقيد..

محطة رمسيس هي آخر محطة تحت الأرض باتجاه «المرج». لكن فجأةً؛ انتبهت أن الظلمة ما زالت قائمةً. أنحن ما زلنا تحت الأرض؟ أين أنا؟ في أي محطة أنا؟ هل أخطأت اختيار الاتجاه؟

سلبني النص الوعي بالمكان، واستنكرت معالم المكان في الخارج وسط ظلمة مفاجئة. بعد تحرك المترو وملامسة أشعة النور لوجهي استوعبت أنها محطة (منشية الصدر). نحن في الاتجاه الصحيح!

تابعت القراءة بعد لحظة تنفس عميقة تعبر عن استعادة وعي بما يحدث خارجًا، وأكملت بنهم القراءة والاستمتاع بمشاهد الرواية وكلي بحث عن نفسي بين أحرف قد تعطيني فكرةً بطريقة مختلفة كليةً عما يجب فعله من أجل مشكلتي والخطة التي يجب أن أتبعها لصنع حالة اتزان في نسق الفصول الثلاثة..

في لحظة توهان وصمت رحت أضحك بصوت يكاد يُسْمَع ممن هم بجواري بسبب مداهمة من «أحلام مستغانمي» لصمتي لما تكلمت عن

طرائف النادل الجزائري الذي لا يُوجَد له مثيل في العالم حين قالت في فقرة جاء فيها:

((كتلك الحادثة التي روتها لي صديقة صحافية كانت موجودةً في السبعينات في نزل فخم بالعاصمة، مع وفد من الصحافيين الأجانب، بمناسبة الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة.

وبعد انتظار طويل، وبعد أن يئست من إحضار طلباتها، استدعت النادل، وقالت له على طريقة الشرقيين: نحن ننتظر منذ نصف ساعة، عليك أن تولينا اهتمامًا خاصًّا. إننا ضيوف لدى الرئاسة!

ولكنه رد عليها بطريقة لا يتقنها غير الجزائريين: ما دمت ضيفةً عند الرئاسة.. روحي لعند بن جديد[1] (يسربيلك). ومضى ليتركها مذهولةً. طبعًا عندما عادت إلى سوريا وروت هذه الحاثة، لم يصدقها أحد. فعندنا فقط، يطلب النادل من رئيس الجمهورية أن يخدم ضيوفه بنفسه! ...)) ..

×××

هنا تغير مزاجي من حالة الصمت الموجوع إلى ابتسامة كسرت الحالة الأولى فأغلقت هاتفي على أمل استكمال القراءة لاحقًا، واستكمال البحث عما أريده في لحظات أخرى ...

×××

بعد وصولي إلى الحي الذي أسكن فيه كنت أرسم صورةً لليلة حافلة بالأحلام وقلت ابتداءً: سأرحل من هنا نحو البيت شمالًا بانحراف شرقًا

١- الشاذلي بن جديد (١٤ أبريل ١٩٢٩ – ٦ أكتوبر ٢٠١٢) رئيس الجزائر الأسبق (٩ فبراير ١٩٧٩ – ١١ يناير ١٩٩٢).

لأجل الانطفاء نومًا والاشتعال أملًا غدًا.. يا غدًا متخمًا بالأمنيات تمهل حتى أستجمع قواي!

عند الوصول إلى البيت صنعت مقدمات افتتاحية كي تليق اللحظات الآتية بالكتابة.. وكانت رفيقة اللحظات مقطوعة «تعاليم حورية» لملك العود «نصير شمة»..

هذه المقطوعة بالذات معزوفة من الروح إلى الروح.. كل لمسة وتر تثير جنوني ورغبتي في الكتابة، والاستمتاع بتفاصيل مملكتي الخرافية الزاهية بالجنون والألوان والموسيقى.. ما أبهاها تلك اللحظات وما أكثرها جنونًا وألقًا لو استمرت!

نصير شمة؛ موسيقاك تعبث بمشاعري ... أحيانًا ينتعش الجسد ويبتهج كما كنت قبل ساعة كطفل يمتلأ حياةً وأملًا، وأحيانًا تدمع العين كما الآن.. وأنا لا أكاد أرى ما أكتب بمنتهى الوجع القديم والحاضر..

مونولوج أمثله أنا في صمت أمام جمهور واحد هو أنا.. يا أيتها الألحان العابثة؛ قد أخذتني من نفسي وطفت بي عبر خمس وثلاثين سنةً مضت..

هذا العود بسحره يرسم حكايتي بكل فصولها وبكل أطيافها وألوانها ونكهاتها، وأنت يا شمة يا سيد اللحن الموجع حد البكاء هنيئًا لك بما تفعله بي موسيقاك..

في لحظة ما أتت مقطوعة «أرض السواد» لنصير شمة لتزيد حدة الحالة التي رسمها ختام حديث جانبي أوقف مسار النص وأخرج القلم من حالة السرد إلى حالة التأوهات والخربشات، ويحل الصمت بكل وقاره عندما يلغي الآخرون حقك في الاستماع إلى تفاصيلك..

الصمت عدو رائع.. يحكي لك عنك.. يشاطرك الحلم والخوف.. السعادة والحزن.. يشرب معك كوب شاي.. ويلعب معك لعبة الشطرنج باحترافية، ويلاعبك بمهل كي تفرغ ما في بعض جعبتك من أفكار.. ثم يفاجئك ساخرًا: (شاه مات).. وينزع صمام قنبلة يدوية في وجهك ويرحل..

يحتاج الصمت في أرضي إلى ثورة ربيع تبيد سطوته، وتبدد ظلاله ليتكشف النبض المكبوت، ويسطع نجمه فوق بساتين البوح؛ فتتفح زهراته شعرًا ونثرًا، وأغان عشق على ألحان موسيقى الحلم القديم الذي صار أكبر، وصار أحق بالثورة الآن قبل موسم آخر.. في هذا الموسم قبل الموسم القادم..

×××

متعب شوقًا..

بين اشتياقين؛ هذه هي الحكاية: قبل منتصف الليل بساعة أمي كانت تحضنني بعمق وتقول: «سأشتاق لك كثيرًا بني!»، وبعد خمس عشرة ساعة يدها تصافحني لأول مرة.. لم تقل الكثير.. قالت بخجل كبير: اشتقت لك كثيرًا..

بين اشتياق أبكاني وبين اشتياق أسعدني قصة أربعة سنوات بأكملها.. إنه السادس والعشرون من سبتمبر ألفين وإحدى عشرة؛ بين ليلته ونهاره كان يومًا متخمًا بالذكريات والدموع والابتسامات..

في مساء سبتمبر الأخير كان الشوق والخوف سكر قهوتي! وفي احتفالية اكتمال السنة الرابعة اغترابًا كتبت:

اشتقت لخريفها وشتائها بكل ما يحمل الشوق المجنون من اندفاع في المشاعر ولهب في الأحاسيس.. اشتقت إلى جزائري..

سعيد أني سألتقيها في خريف يحمل كل الصور التي في داخلي بسبب ذاك الحنين المتخم لورق الشجر، وللسير بنكهة القصيدة ومذاق المطر، ورحلتي بين الهضاب، بين الشجر؛ لمعانقة الشمس في صباحات الشتاء الحالمة..

اشتقت لحكايات الشمس وتلميحاتها يوم أخبرتني في نوفمبر ألفين وعشرة أني سأكتب أول صفحة في رواية تقودني من وطني إلى القاهرة مباشرةً.. سأخبرها عن اشتياقي لأسرارها، فهي لا تخبرني بشيء إلا في وطني.. سأخبر الخريف أني اشتقت له..

سأبكي لهفةً أمام سحر الشتاء وبرودته العاصفة بجسدي.. سأعانق المطر بنكهة وطني أخيرًا.. أكتوبر تعالى لا تنتظر تماطل سبتمبر..

×××

- ٣ -

رغم كل المخاوف، ورغم كل الاعتراضات، ورغم كل وجهات النظر المتضادة كانت الرحلة الانفرادية الحل الأخير.. وأقلعت الطائرة تأخذني مني إلى غد أبحث فيه عن مقدمات استعادة نفسي، أو أجد فيه قناعةً أني ما زلت تائهًا إلى أجل غير معروف..

ثامنة مساء الخامس من أكتوبر تدق رقةً وهي تسجل كيف عانقتني أمي وكيف عانقني أبي وكيف كان الحديث متخمًا بالشوق والأسئلة عن الصحة والحال.. ورغم كل القراءات الحاضرة للشكوك والمخاوف إلا أني لبست طقم ابتسامة تليق بأمي.. وتحركنا بعد زمن يسير.. نشق الطريق إلى البلدة..

– هل وصلت إلى سبب طبي لفقدك يوسف وأحمد؟ أم أنك لا تبالي؟ الزمن يجري وأقرانك آباء للولد والولدين والثلاثة..

– ليس بعد!

– لم؟ ألا ترى أنك لا تجتهد كفايةً؟

– لست أعلم؛ جهلًا بالغيب لا تقاعسًا عن الطلب!

– وما أخبارك المالية؟ هل تدخر شيئًا لغدك؟

– الغد بيد الله، وما أدخر شيئًا، فكل ما أكسبه يذهب في التزامات الحياة اليومية، وأنا أسعى للأفضل.

– أعتقد أنك مهمل في هذا ولا تنظر بعين بصيرة.. الزمن صعب، وتقلباته مخيفة..

– تقلباته.. ركز لي على تقلباته، فمن يدري بغد، وما يأتي به من خير؟

– أنت تأمل دون عمل جاد.. وفرق بين أمل دون عمل وعمل يحذوه أمل!

– ومن أدراك أني لا أعمل جهدي؟ لست بالجاهل ما يدور حولي، ولست بالزاهد في الدنيا زهدًا يغنيني عن طلب الأفضل!

– ...

– دعه هو متعب، ألا ترى رأسه تقع نعاسًا وتعبًا..

×××

ما كنت تعبًا يا أمي ولكني تظاهرت هروبًا من أسئلته وملاحظاته التي أعيها ولكن توقيتها قاتل جدًّا..

أبعد غربة سنتين كاملتين وزيادة بشهرين أُلاقى بهذا الكم من التعنيف والانتقاص من اجتهاداتي ومن سعيي؟

تظاهرت بالنوم، وضِعت أبحث عن نفسي التي ما زالت تصرخ: أريد من يحتوي هذه الروح لا من يعذبها فوق عذاباتها..

أقدري أن أشرب كأس الاغتراب الروحي أينما حللت؟ لماذا يحدث لي هذا في الساعة الأولى من اللقاء؟ لماذا هذا السيل من الوجع في اللحظات الأجدر بالفرح والابتسام؟

ملامحي التي ألبستها من ابتسامات الفرح عرتها تهكمات لا محل لها من إعراب الزمن المنتظر.. ملامحي اتسخت بسواد الحزن الساخر مني منذ بدايات الحكاية الأولى.. منذ أحرف «انتكاسات ذاكرة» وامتدادًا لهذه التفاصيل التي أبوح بها في نص آخر..

هنا شعرت باغتراب الروح بقوة.. فكرًا وعاطفةً وانتماءً.. هل يليق

بالنص أن يكون عنوانه «اغتراب روح» أو «غربة روح» أو شيء مقارب لهما يلبس الغربة عنوانًا..

آه.. أيها الطريق الطويل.. أيها الليل البهيم.. أيها الصمت الخانق.. امتلأت دموعي رغبةً في الصراخ على وجنتي وغسل السواد في المشهد، لكني قاومتها وكبحتها بعنف واكتفيت بالبكاء داخليًّا، وربما سأبكي لاحقًا حيث أكون وحدي ولا أحد يعاتبني عن هذه الحالة التي تُفَسر أنها انهزامية..

×××

وصلنا إلى البيت ودخلت المكان بوجع الخائف المرتاب، ولم يخفف عني سوى ابتسامات طفلين أخوين لي صغيرين ومفاجأة عناق من طفل في سدس سنته الثانية تقريبًا.. ابن أخي لم يرني من قبل ولكنه ألفني في أقل من ثوان، وراح يمنحني ابتساماته وضحكاته وعبث يديه بوجهي.. ضممته إلي وقلت له في داخلي روح قريبة من عمرك شاخت وهي في طفولتها بحثًا عن احتواء حقيقي..

عندما وُضع الأكل أمامي تنقلت بين أطراف الصحن بعيني وبملعقتي ولم أتناول شيئًا.. أحسست بالامتلاء من كل شيء إلا الرغبة في عزلة أخذتني إلى غرفتي..

لحقت بي أمي تتحسس ذاك الألم الذي لم أستطع إخفاءه عنها.. يبدو أنه لا يوجد حاجز روحي بين الأم وابنها.. كانت تقرأ حزني وإن لم تترجم كل أحرفه وعباراته الصارخة بصمت؛ لكنها أحست به وسألتني عنه كي أصفه لها..

وأخبرتها: ما هكذا تُسَاق الإبل يا أمي.. ما هكذا تُصنع الهمم.. ما هكذا

تكون النصيحة.. ما هكذا يكون الاهتمام القلق.. ما هكذا يكون استقبال غريب الدارين بعد أزيد من سنتين بوابل من العتاب واللوم والتجريح..

يا أمي أنا متعب كفايةً بما لم أعد أحتمله ... كانت تفهم عمق ألمي وإن لم تدرك كل أوجاعي وتشعباتها، وحاولت أن تلطف من جو المكان لأنعم بليلة هادئة وأنام، ويكون للصباح حديث غير الحديث..

حاولت أن أنام عبثًا.. سُدَّت المنافذ أمام النعاس لتلبسه عيني وأنام..

كان جالسًا قربي ينتظر إشارةً من العيون المتعبة، لكن الغوغاء التي كانت تسببها أفكاري الثائرة كانت تزيد من اتساع حدقتي، وتزيد من اتساع العينين، ولم أعرف كيف السبيل إلى أن أنام حتى انهارت قواي.. هنا تسلل النوم المترصد اللحظة ليستولي على المكان..

نمت بضع ساعات.. أحسست بعدها برغبة في الانطلاق إلى خارج البيت لألتقي بأصدقائي كي أجدد بعض الأنفاس وأتناسى وجع ليلة ما كان ينبغي أن تكون، لكنها كانت ولا اعتراض..

×××

كنت حريصًا على زيارة أصدقائي المقربين وكنت في الجانب الآخر زاهدًا في زيارة الأقارب إلا خالةً لي.. لم أكن مستعدًّا للتدخل في حياتي الشخصية والسؤال عن الولد والمال والمعيشة..

كنت أجد في لقاءات أصدقائي متنفسًا في الحديث عن الجزائر وعن مصر وعن مستجداتنا العامة والخاصة دون مساس بمشاعر الآخر وحريته الشخصية ووجهات نظره التي يؤمن بها..

×××

في الأسبوع الثاني لي زائرًا اتصل بي الصديق الشاعر والروائي الشاب «محمد رفيق طيبي» يخبرني عن ترتيبه لاستضافتي في برنامج الدكتور «محمد الصديق باغورة» المُسَمى «المقهى الأدبي»، فوافقت وأبديت استعدادًا لذلك في أي وقت يناسبهما، ورحت أنتقي شيئًا من النصوص مما كتبت.. واخترت النصوص التي قرأناها في الفصل الأول من هذه الحكاية.. وكان اللقاء وكان مسار الحلقة كما وصفته سابقًا..

×××

مزامنةً مع التسجيل الإذاعي كانت ترتيبات أخرى تُقام في مدينة جامعة بولاية واد سوف الصحراوية المضيافة بمناسبة احتفالات الفاتح من نوفمبر، عيد الثورة المجيدة..

ما أبهرني مساء السبت الواحد والثلاثين من أكتوبر اكتشافي لمدينة «القنطرة» المتوسطة بين باتنة وبسكرة بما يقارب الخمسين كيلومتر شمالاً ومثله جنوبًا.. ذاك الجسر المصمم بهندسة عبقرية مدهشة في جبل يشكل لوحةً طبيعيةً تشد الأنظار وتسحرها..

قدم الأصدقاء إلى محطة الباص بعد وصولي ببضع وقت، وكان لنا حوارات كثيرة.. كانت مدينة جامعة تفتح ذراعيها لهذا الغريب القادم أول مرة.. وكانت ترتسم فرحتها في ابتسامات الأصدقاء.. لم يثنني التعب الذي قاومته وأخفيته في مشاركتهم كل اللحظات التحضيرية قدر المكن والمتاح..

وأتى نوفمبر يرسم خطواته بفخر برصاصات تعلو السماء احتفاءً به.. ولا يليق بنوفمبر إلا زغاريد الرصاص تُفَرَش السماء له ثم الأرض بهاءً يليق به وبتاريخ حافل بالبطولات المجيدة..

بعد ليلة من الاحتفالات أتت شمس الأول منه تحتفل الأخرى معنا بأشعتها البهية، وصدحت المدينة بنغمات الفرقة النحاسية ثم عروض قتالية لرياضة (الفوفيتنام)، ليأتي دور المسرح.. بين أحاديث الذاكرة وإلقاءات شعرية كان لي نصيب منها بنصين.. حضرت قناة الشروق للتغطية، وحضر الكثير من الشخصيات الرسمية؛ المدنية والعسكرية، وبعض المجاهدين وكثير من الشباب..

جمعتنا جلسة بعد الاحتفالات بين منشطي الاحتفالية وبعض الكتاب والشعراء، وحظيت فيها بكتابين من صديقين موقعين مهديين مع هدايا أخرى؛ كان تاجها المصحف الشريف، وعطرها علم الجزائر، وسكرها تمر المدينة المُنْتَقى (دقلة نور)..

في آخر المساء كان الرحيل عن «جامعة» باتجاه قسنطينة.. المدينة التي تسلبني من نفسي..

×××

فجر الاثنين الثاني من نوفمبر.. تعانقنا أنا وروح قسنطينة.. فتحت ذراعي على اتساع وضممتها بقوة.. تنفستها حد الرعشة حيث سكن برد الصباح جسدي.. أخيرًا وصلت إليك أيتها التي تأخذ القلب من أول نفس يختلط بالرئتين، ومن أول همسة من صداك يا مدينة الهوى والهواء..

في صلاة فجر ذاك اليوم كان لا بد من الحمد الكثير لله على نعمته البالغة؛ حيث بعض اللقاءات في حياتنا تُعَد نعمًا تستحق الحمد كلقاء هذه المدينة العتيقة، والسفر فيها بين تفاصيل ممتدة عبر التاريخ والذاكرة..

ليلى؛ هبة أخرى.. تلك الإنسانة التي لم تلدها أمي وولدتها الظروف..

كان لائقًا بي أن ألتقيها يومها.. حيث تجمعنا أوجاع بحجم الكوكب؛ كانت مرآةً لشيء عميق من وجعي.. كانت المدينة كلها تبتهج وهي تبتسم، وتحزن على انبعاث حزنها.. كأنها روح المدينة، أو شفافية مشاعرها امتزجت بروح المدينة العميقة حد هذا التفاعل..

×××

سجل الثالث من نوفمبر حضوري الأول للسنة الموافقة له في المعرض الدولي للكتاب المُقَام في قصر المعارض بالصنوبر البحري؛ الجزائر العاصمة، وكانت لي فرصة أن ألتقي فيه بكثير من العناوين؛ اقتنيت بعضًا منها، وصادفتني اللحظات بلقاء من وقعوها حرفًا ونبضًا: عبد الرزاق بوكبة وندبة الهلالي.. محمد رفيق طيبي والموت في زمن هش.. أحمد ملياني وعود ثقاب.. سليمان جوادي ولا شعر بعدك..

السابع نوفمبر كختام لخمسة أيام في رحاب العاصمة كان همي الأكبر فيها التقاء أصدقائي ضمن فعاليات المعرض والحصول على توقيعاتهم على الكتب المنتقاة، رغم أن رغبتي كانت انتقاء الكثير من العناوين لكن لم يكن لي حيلة في ذلك بسبب قلة ما لدي من مال لم يسعفني، وحرمني عناوين لم أجدها لاحقًا..

في أول يوم في رحلة زيارتي للمعرض وثانيه التقيت بمحض الصدفة بصديقين لي: عباس وعبد العزيز لم يكتب لي القدر نصيبًا في لقائهما مجددًا، لكني سعدت بهذه الفرصة جدًّا..

في آخر يوم كانت عودتي مع الصديق محمد رفيق طيبي تناولنا فيها مختلف الرؤى عن المعرض وعن نسبة الزوار والمقروئية ونوعية القراءة

وإشكالات النشر في الجزائر.. وطموحنا في صنع واقع أفضل..

×××

بعد ذلك أتى التاسع من نوفمبر، وفيه التحقت بي الزوجة بعد شهر وزيادة من الفراق والمسافات الفاصلة، فاستقبلتها في المطار رفقة أبي وأخي.. غير أني اقتنصت فرصةً بعيدًا عن أنظارهما وكسرت قاعدة المحظور، وعانقتها بشدة فرحًا بقدومها.. كانت دهشتها فوق الوصف حرجًا وحياءً من هذا التصرف.. لم تكن تتوقعه وكانت تراه مجازفةً..

كان لقاؤها بالأهل غير آخر مرة.. كان أكثر احتواءً وأكثر لطفًا..

×××

بعد أيام انتقلنا إلى العاصمة لتغيير الأجواء وزيارة الأهل فيها.. كانت العاصمة بهيةً في عينيها وهي تصفها بإعجاب وارتياح، لكن قطعت رحلتنا شمس التاسع عشر نوفمبر وأيقظتنا على خبر مفجع من أخي؛ حيث تعرض إلى حادثة سير بشاحنته.. وعبر عن الحادث أنه كارثة ولا بد من عودة فورية..

مفهوم الكارثة والكلام المختزل والضرورة القصوى للعودة كانت تقلقني جدًّا وتحيلني إلى احتمالات مخيفة، فعدنا فورًا إلى البلدة في أول حافلة صادفناها..

عند الوصول إلى البيت رأيت أخي سالمًا رغم بعض الأوجاع التي كتمها وكثير من الدموع في أعين الجميع مما سُكِت عنه ومما أُفصِح عنه..

جنا لم تتحمل ذلك فبكت بشدة وهي تحمد الله على سلامته.. سألت الجدة باستغراب ما يبكيها بهذا الشكل، فكان رد أخي أنها تبكي خوفًا على

أخيها وفرحًا بنجاته.. هذا الرد كان صك الفرحة التي جعلت من جنا فردًا قائمًا بذاته داخل كيان الأسرة لا شخصًا دخيلًا كما تصورت في زيارتنا السابقة.. سعدت جدًّا بهذه الجملة التي شفت بعضًا من وجعي..

حاصرتنا أجواء ما بعد الحادث حد إلغاء كثير من المواعيد..

×××

كانت لي عودة إلى قسنطينة، حيث التقيت ذاك الإعلامي والكاتب والرسام مستقبلًا «وحيد فريد»..

التقينا اليوم التاسع من ديسمبر، فأتحفني بكثير من الحوارات الراقية عن الكتابة والقراءة والرسم والموسيقى ورغبته في تدوين تجربته الذاتية في رواية، فشجعته على ذلك، وتحدثنا عن تجربتي في الكتابة كمقاربة لما يجول بخاطره، وأهديته مختارات موقعة من نصوص كانت بحوزتي لأجله..

وتخلل ذلك ساعة غداء، ثم فسحة في أروقة الجامعة الإسلامية الملحقة بجامع الأمير عبد القادر أين التقطنا بعض الصور، وافترقنا بعدها على أمل لقاء على صفحات الواقع أو على صفحات مخطوطاتنا، وها أنا ألتقيه مجددًا ونحن نتحدث عن قسنطينة..

كم بودي أن أقرأ تجربته الذاتية وخصوصًا أن كثيرًا من أحداثها مرتبطة بقسنطينة! ولظروف مرتبطة بعمله ونسق البرنامج الذي يعده وعدني بإدراج إسهاماتي في حلقة منفردة؛ يتحدث فيها عن لقائنا، وعن أبعاد الكتابة في فكرين تقاربا حد المشابهة..

×××

في اليوم الموالي كانت رحلتي إلى الجميلة الأخرى «ميلة»، حيث إني

التقيت هناك الأخ والصديق «الطاهر بوصبع».. شاعر من طينة التحدي.. كان كريم الابتسامة والكلمات والترحاب.. رغم تواضعه كشخص كان كبيرًا بفكره وأخلاقه وروحه..

قلت لك أنه من عجينة تحد لأنه يُصَنف من ذوي الاحتياجات الخاصة في مفهوم السلامة وضدها، وهو يعاني ضمورًا عضليًّا، ويتنقل عبر كرسي كهربائي.. هذه المعاناة لم توقفه عند عتبة عدم الاستطاعة، بل تحدى ونجح بحصوله على شهادتي القانون والمحاماة، وكانت ملكة الشعر قد تكونت داخله منذ بدايات شبابه.. وكأن الإبداع معنا يولده ذاك الكم من الألم والحرمان العاطفي أو الجسدي..

(هل قدر البداية أن تكون مؤلمةً موجعةً كلحظة الولادة؟) هكذا سألني الدكتور محمد الصديق باغورة في لقائنا الإذاعي.. هل لقائي بأخي الطاهر يؤكد لي هذه المعلومة؟ ربما هي إضافة لما أنا واثق منه!

تحدثنا عن التحديات التي تقابل ذوي الاحتياجات الخاصة انطلاقًا من الأسر، ثم المجتمع، ثم الدولة كمنظومة حاكمة مسيرة لشؤون العباد.. وتوقفنا بألم عند النظرة المجتمعية التي تصنع أزمة التقبل والتعايش، والتي تزيد من عمق مأساتها المشاريع القائمة في البلاد والتشريعات التي كلها تزيد من آلام وأوجاع ذوي الاحتياجات الخاصة بكل فئاتهم..

بعيدًا عن الوجع ذهبنا إلى مكان له من السحر الكثير ومن الروعة الكثير الكثير وكيف لا وهو يحكي عن صفحات عميقة من تاريخ المدينة العريقة..

ميلة: برزت في عهد ماسينيسا في العهد النوميدي، وكانت تحكمها

الملكة ميلو؛ التي يُقَال أن المدينة نُسِبت إليها رغم اختلاف الروايات التي تقول أن ميلة تعود إلى اسم ميلاف ومعناها الألف ساقية أو الأرض المسقية في اللغة الأمازيغية..

هذه الملكة – وعلى فرضية أن المدينة نُسبت إليها – أحبها الناس وعند موتها اعتبروها آلهةً، وصنعوا لأجلها تمثالًا خزفيًّا من قطعة واحدة؛ يُعَد الأكبر في العالم، ولكنه ليس لجسمها بل لظلها تقديسًا لها حد الامتناع عن تجسيد جسدها.. وقفت عند التمثال بانبهار من فكرته وجماله..

وقفنا عند أضرحة تاريخية من العهد الروماني حيث تُنْقش على الأضرحة أسماء المتوفين أو بعض أسمائهم، فمساحة النقش تخضع للظروف الاقتصادية للمُتَوفى؛ حيث كل حرف له قيمة مالية، وبالتالي فإن مستوى الميت الاجتماعي هو من يحكم مدى ما يُنْقَش على قبره، إضافةً إلى نقش سيرة ذاتية في شكل صور كما رأيت عن فارس تقرب من السلطان ثم تحول إلى كاهن..

ثم انتقلنا إلى الحديث عن أول كنيسة أُسِّست في الجزائر وإفريقيا كلها مع الحديث عن الشوارع الرومانية الموجودة على مساحة بناء الكنيسة التي لم يبق منها إلى الأساسات وتلك الممرات المصنوعة بجمالية..

ثم أسس الفتح الإسلامي أول مسجد في الجزائر كلها على أنقاض هذه الكنيسة، والذي يُعَد الثاني بعد مسجد عقبة بن نافع في القيروان التونسية والثالث من نوعه تصميمًا وهندسةً مشابهًا لمسجد الأمويين بدمشق.. تحدثنا عن القبلة الأولى للمسجد وتغييرها على فرضية ليست ثابتةً يقينًا حول خطأ البنائين في توجيه القبلة أخذًا باتجاه القبلة في

دمشق والمغايرة تمامًا للقبلة في موضعها في ميلة..

هذه التحفة الأثرية أهانها الاستدمار الفرنسي وحولها لإسطبل في طابقه الأرضي وطابقه الثاني كان مستوصفًا للعلاج..

عندما أقف عند هذه المعطيات التاريخية والسياحية أتأسف على كم الجهل العام بالتاريخ وقلة العناية بتراثنا وتاريخنا..

ثم قمنا بزيارة إلى إذاعة ميلة الجهوية وقمت بتسجيل كلمة في مكروفون الزائرين للمؤسسة، ثم جمعنا غداء على هامش اللقاء كان ختامه الحصول على ديوان الشاعر موقعًا منه والذي حمل عنوان «مسافات البوح والاحتراق».. لتكون بعد ذلك الرحلة عائدًا إلى الأسرة لكن بعد المرور مجددًا على قسنطينة، حيث تنفست هواءها لآخر مرة قبل أن أسافر إلى القاهرة مجددًا بعد ذلك بأيام قلائل..

×××

وتمر الأيام سريعةً ليقترب السفر مجددًا.. وأحزم أمتعتي لرحيل آخر..

أرق موجع.. أربع وعشرون ساعةً ويأتي ذاك الحضن الموجوع ليغمرني بدفئه وأنا أفلت منه مرغمًا.. لحظات عناق تفيض حبًّا ودموعًا.. ما أقسى تلك المشاهد المتسارعة وأنا أرحل عنك يا أمي.. وأرحل عنك يا وطني..

لم أنم ليلة السبت الموصلة إلى الأحد المملوء حديثًا وصمتًا ومشاعرًا وأرقًا لصبيحة اليوم التالي..

وأتى الاثنين الموافق للواحد والعشرين من ديسمبر ليودعني خريف الجزائر ويستقبلني شتاء القاهرة.. وداع ولقاء حتى بيني وبين الفصول!

×××

- ٤ -

بعد عودتنا إلى القاهرة كان إحساسي يتشكل بوضوح أكثر عن مدى الصراع بين البقاء والرحيل.. هل تعودت على الرحيل حد كراهية البقاء في الأمكن مدةً تطول أو تقصر؟ لم أجد في المرايا نصف صورتي، وملامحي الظاهرة غاب بريقها.. وهذا وتر حالتي النفسية أيامًا عدةً..

نظرت إلي بدهشة الوجع من كم الصمت الذي أصبح الرفيق الأكثر للحظات؛ وقالت: أتحب غيري؟ قلت: انعكاس طيفك في المرآة!

هل تكفي جملة مملوءة بالجمال والدهشة على إسكات فضول امرأة حول الحزن والصمت الذي يحول بينها وبين رجلها؟ حتمًا لا! مهما بلغت حالات الغزل فإن كل لحظة صمت عميقة وكل آهة وجع لا مُبَرر في نظرها تزرع ألف سؤال..

كنت أحاول سد الفراغات بيننا بجمل مفاجئة وقبلة على الجبين كما فعلت ذات مساء لما قلت لها: كوني العطر أكن لك الشمعة.. أنت تعطرين المكان وأنا أحترق لأنير ليلك..

قالت لي: موجوع اعترافك، وفيه احتراق وألم لا ينسيني ما يحدث داخلك، ولا ينسيني مدى الوجع الساكن في أعماقي وأنا أراك – بصمتك – تبتعد عني..

المرأة خُلِقت سريعة التأقلم، بينما خُلِق الرجل صعب التغير لحكمة التكامل.. صمت الرجل وابتعاده وتفرده مكانًا ووقتًا لا يعني أنه تغير! قِيل إنه

توجد منطقة تحتوي على ثلث عقل الرجل تقريبًا تُسَمى (الكهف)، ويفسر اسمها معناها، وتعني أن الرجل في حاجة ضرورية للانفراد بذاته لوقت يحدده عقله على قدر الحاجة لحل مشكلة أو تحليل موقف، أو تصفية ذهنه عند التعرض لأزمة.

×××

— ٥ —

حاولت كسر الروتين القاتل، وتجديد يومياتي، وكانت فكرة حضور أمسيات أدبية في صالونات مختلفة أمرًا يدعو إلى التفاؤل.. حيث أُسْمِع كتاباتي وآرائي أكبر عدد ممكن، وأسعى إلى إيجاد شيء من النقد بجوار القراءة.. فإن قراءة النص وحدها والتصفيق له لا تنفع الكاتب بقدر ما تضره أدبيًّا ونفسيًّا..

شاركت في أمسيات مختلفة، لكن الغريب أني كنت أعود مكتئبًا جدًّا بعد كل تجربة.. حيث إنه لا اعتبار للوقت عند الغالبية، والوقت بالنسبة لي مسألة مصيرية، فلا أستطيع أن أنفق سبع ساعات أو ثمانيةً لأجل حضور أمسيات لا تقدم لي شيئًا حقيقيًّا؛ وعملي يُهْمَل أو يُؤَجَّل والذي يُبْنَى عليه رزقي ومعيشتي..

ثم إن أغلب النصوص عامية، وبعض اليسير مما يُقَال فصحى يثير استهجاني من كم العبث باللغة والصورة والمنطوق.. إضافةً إلى عزوف الكثيرين عن الاستماع إلى غيرهم في ظاهرة أقل ما يُقَال عنها أنه تمس الذوق العام الذي من المفترض أن يتحلى به الكاتب وهو يطالب به عندما يكون على المنصة..

في حادثة غريبة استهجنتها جدًّا حدثت مع شاعر خمسيني أو يزيد بقليل، وبعد نزولي من المنصة جلس بجواري وطالبني بتعريف العروض بلهجة استفزازية، فعرفت أنه يختبرني.. قلت له: ما داعي سؤالك؟ فقال لي: بحورك ضائعة وقافيتك ضائعة، وتحتاج إلى مزيد من التعلم..

قالها بلهجة استصغار.. فقلت له: سؤالك يدل على جهلك بما ألقيته

على المنصة، وعدم إحاطتك بمعرفة النص وأنه نثر احتوى الصورة الفنية والموسيقى الشعرية، ولست بالتبعية مُلزمًا بقافية وعروض.. عندما تجهل الموضوع الرئيس؛ فلا يليق بك السؤال سؤالًا فرعيًّا استهجانيًّا مسيئًا لمن تحدث..

فقال لي: اضربني؛ اضربني.. قلت له: ليست المسألة مسألة ضرب، إنما أخلاقيات وفنيات السؤال، تبتدئ بتقديم نفسك ولم تفعل، ثم السؤال بلباقة ولم تفعل.. أنت لم تعرفني بك، وتهجمت علي لا على نصي فقط، وانتقدتني بحدة وأنت أساسًا لا تعرف الفرق بين النثر والشعر، ومستوى المناقشة مؤسفة لذا انتهى حواري معك..

وغيرت انتباهي إلى ما يحدث على المنصة.. كاد ينفجر غضبًا..

إضافةً إلى هذا الحدث فإن المستوى العام للمطروح لغةً وبيانًا وفكرةً ووعيًا وثقافةً لم يكن يضيف إلي إلا القناعة أني في المكان الخطأ، فاعتزلت أمسياتهم واعتزلت الحديث وقتًا طويلًا لأسترجع فيه أنفاسي..

بعد زمن بدأ يزيد إدراكي بالفراغات الرهيبة التي يصنعها المكان والزمان..

×××

حاولت العودة إلى كتابة الرواية، وحاولت استنطاق وجعي ومشاعري في حضرة من أحب.. مر شهر كامل ولم أكتب إلا هذا النص:

أريد أن أرتمي في أحضانك وأبكي.. وحيد أنا من دونك لا أساوي شيئًا.. عناويني مبهمة ومساراتي مظلمة.. أعيش الغربة بكل أبعادها في حضن المكان الذي يلفظني لأعاني ويلات السؤال التافه: من أنا؟

لا تلومي انكساري فهو ليس خطيئتي.. أنا ضقت ذرعًا بالعالم كله، وبالكراهية تحت الأحرف، وبالهجران مع أبخرة القهوة التي تُوضع على طاولة الضيافة المثقلة بالنفاق والحقد من ابتسامة تواري خلفها نزيفًا حادًّا لكل شيء..

يا عالم؛ لست بالسعادة التي يمكن أن تحقدوا علي بسببها وتحسدوني في كل مجمع وكل خلوة، ولست ذاك العاشق المنتصر الذي تغارون منه ومن حبيبته..

أنا منذ عرفت معنى الحب لم أنعم بلحظة صفو إلا في حضرة آخر حبيباتي التي تريدون خطفها مني وحرماني إياها بحقدكم.. تجتاحني رغبة عنيفة للصراخ، لكن هيهات أن أصرخ.. سيتهمني الجميع بالجنون، وهذا سيزيد من مساحة الوجع داخلي..

حاولت أن أبكي.. جافتني الرغبة أول مرة في البكاء.. فررت من كل الأمكنة – لأنها أصبحت مملوءةً بالزيف وخانقةً عندما تسقط الأقنعة، وتنبعث رائحة الموت من أحرف التعري – وتوشحت أنفاسي في حضرة العراء خارج الزمن والمكان..

حبيبتي؛ تخيفني المسافات التي تفصل بيننا، وتخيفني تقاليد المواسم التي تطردني كل مرة.. تخيفني انتكاسات النبض والحرف، وتخيفني الابتسامة التي تعلو في موسم الدموع: تبدو كابتسامة طفل في موسم النكبة؛ يبتسم ليعلن براءته للعالم وهو يعاني الكارثة بكل أبعادها..

آه..

×××

في ظل التوتر مع الكتابة ومساحات الصمت حاولت إفراغ طاقتي في العمل، والاجتهاد قدر الممكن والمتاح في تكثيف ساعات العمل التي كانت تستمر أحيانًا إلى الفجر.. وكان أنيسي في أغلب الأمسيات الممتدة عملًا عود يخترق صمت المكان ويشعل نيران شوقي إلى وطني وإلى سمائه الزاهية بنجوم؛ اعتدت أن أرحل بينها وأنا نائم فوق سطح بيتنا؛ أبحث عن الطائرات المارة بين النجوم الثابتة، وأبحث عن تفاصيل نص يقرأ تناقضاتي الداخلية..

في رحلة العودة إلى البيت كنت أتصفح صفحة السماء لأبحث عن تلك النجوم فأراها باهتةً شحيحةً وكأن السماء غير السماء.. حتى القمر نادرًا ما كنا نلتقي للتحدث.. فقدت مفاتيح الخرائط التي كنت أرسمها ربطًا بين النجوم، وحكاية المشاعر المتقاطعة التي ترسمها تلك الطائرات العابرة..

كم موجع ألا تنام ثلاث ليال متواصلة إلا بعد الشروق نومةً تشبه الكذبة؛ فقط اجتهادًا في عملك، لتقدم الأفضل بصورة أفضل، ثم تجد الصمت أمام جهدك وغياب كلمة شكر تمنحك حافزًا للمزيد من الجهد.. وأنا أقرأ من ملامحه شيئًا لم يرضني كان يزرع في روحي إحباطًا متعبًا أشعرني بالملل جدًّا أمام استكمال العمل بتلك الطاقة التي استنفذتها في ليال بيضاء، والتي دفعت ثمنها غاليًا بالدخول في نوبة إرهاق شديد.. وزاد الوجع وزاد التشتت أكثر..

×××

كثرة الوجع تلغي القدرة على الكلام مع الآخرين وقد توقف حتى الكلام

مع الذات أحيانًا.. كثرة الوجع توصلنا إلى حالة من الانبهار اللامعقول بمساحات النزف..

في لحظة صادمة صرخت في وجهي: لماذا كل هذا الحزن والتيه عني؟ قلت لها: لا تصرخي في وجه موجوع! يكفيه عذابًا ما هو فيه.. أيتها الأنثى؛ احذري رجلًا أحلامه تزيد اتساعًا، وعذاباته تزيد عمقًا، وتعود على المجازفة..

وخرجت من البيت لأزرع فيها شيئًا من ألم أحاطتني به وقصدت اللاوجهة بعد أن اختنقت من هواء الدائرة الضيقة التي أسرتني أسابيع كاملة..

أثناء الوقوف انتظارًا للمترو.. تحسست في رئتي كم الغربة في أنفاسي.. فقلت: الغربة! لم تقترن في قواميسي – يومًا – بسببية المكان؛ بقدر ما اقترنت بسببية المسافات بين الأرواح.. تلك السببية التي قادتني لتقبل الهجرة رأسًا، والآن تصنع داخلي مشروع هجرة عكسية أو امتدادًا جديدًا للاغتراب إلى حيث لا أعرف يقينًا أين تقودني هذه المشاعر المتناقضة..

حاولت أن أكتب شيئًا مما يجول في خاطري على كراسة رافقتني وأنا أعدل جلستي في كرسي الانتظار في المحطة بعد أن ألغيت فكرة السفر إلى أي اتجاه.. واكتفيت بضجيج السكة الحديدية وصفارات القطارات العابرة.. لم أستطع أن أكتب غير كلمة: آه..

موجعة تلك الغربة الأخرى أمام الورق.. ومرهق ذاك الانتظار لرحلة البوح..

عندما داهمني وجع الخيبة صرخت بعمق: كفى.. كفى.. كفى.. أيتها الذاكرة البائسة كفى! كفى وجعًا.. كفى عبثًا!

بعد يوم مرهق أتى مساء بطعم الوحدة المطلقة..

سأعطرك يا وحدتي وأحضنك بشدة، وأحكي لك بعضًا من وجع الاشتياق، ثم أنام..

بعد سكون في الفراش ساعتين تيقنت ألا نوم في الأفق.. جافاني النوم بطريقة موجعة.. رغم الإرهاق وهدأة الليل والسكون المطلق لم أجد السبيل لغمضة عين..

×××

في اليوم الموالي زرت المقبرة لأول مرة بعد أشهر من الرغبة في ذلك وإلغائها كل مرة.. دخلت المقبرة بخطى يكاد لا يُسْمَع لها أثر.. وكان اللقاء المبكي..

كانت دموعًا حارةً لم أستطع كبتها وأنا أقف تباعًا أمام لحد يوسف (٢٠١٣) ولحد أحمد (٢٠١٤).. ما تكلمت بحزن في فقدهما ولا يأسًا من رحمة الله، ولكن افتقادهما قبل فرحتي بهما حركت مشاعري وأبكتني يومها إلى حد كنت أخفي فيه تلك الدموع، ولكن فضحني صوتي الباكي.. جعلهما الله شفيعين إن كان صبري يقينًا، وأحسبه يقينًا بأن لله ما أعطى ولله ما أخذ..

×××

- ٦ -

في زيارة لا أذكر تفاصيلها قادتني إلى الزمالك مرورًا على جسر ٢٦ يوليو؛ كان النيل يومها ساحرًا ورائعًا.. كان يحدثني بالبقاء وأنا أنظر إليه زارعًا فيه نظرات الوداع.. كانت تتلألأ قطراته الندية اللامعة بانعكاس الشمس.. وأنا كنت متخمًا بكل التناقضات حد عدم الالتفات إلى إغراءاتها.. خشيت من البكاء وجعًا وأنا بين عشرات المارين، ومئات الراكبين الفضوليين.. وقلت له في انسحاب هارب من التقاء الماء بالماء عندما أحسست بندى عيني: لم يبق لي الكثير هنا.. لكن لا تحزن سآتيك مرات زائرًا عابرًا..

×××

بعد مرور أيام كان القدر يقودني مرةً أخرى الوجهة نفسها في المسار نفسه..

كانت الخطوات تقودني مشيًا على أرصفة الشوارع، وطيرانًا بين أحرف رواية[1] رافقتني نصف يوم قراءةً وتأملًا وإعادة قراءة لذاتي.. فبعض النصوص لا نكتفي بقراءتها.. بل تلزمنا أن نقرأها قراءتين؛ وربما أكثر في الجملة ذاتها.. نقرأ الرواية، ونقرأ الراوي، ونقرأ أنفسنا.. كنت أتفاعل فرحًا وحزنًا وضحكًا وثورةً وذهولًا في القراءة والقراءة المرافقة..

فجأةً؛ وعلى مشارف جسر (٢٦ يوليو) كان في الجزء المعاكس لسيري حافلة وسيارة أجرة بيضاء، وأمامهما أنثى تسلط عينيها علي.. وضعت عيني بين صفحات الكتاب تجنبًا لأسئلة لا رغبة لي فيها.. فأنا لست أرغب

١- رواية ندبة الهلالي لعبد الرزاق بوكبة.

في قراءة رابعة تخرجني من مربع النص الذي أسرت نفسي فيه ذاك المساء..

في لحظة ما أحسست برعشة تهز جسدي.. نظرت أمامي فوجدت الطريق فارغًا تمامًا.. نظرت خلفي متذكرًا الحافلة وسيارة الأجرة فوجدتهما قد ابتعدتا، ولا أثر لتلك الأنثى التي كانت تلتهمني بعينيها..

وأكاد أجزم أن لا واحدة من المركبتين يُتَاح لها التوقف لمعرفة وجهة تلك الأنثى المعجونة بالدهشة ونقلها حيث تبتغي.. بقياس المسافة بيني وبينها وبين المركبتين وسرعة مرورهما كانت الحكاية تشبه لغزًا حِيكَ ليخرجني من نص أقرأه إلى نص آخر أكتبه..

نظرت حولي بشيء من الذهول وقد طويت صفحات الرواية، وأكملت طريقي برعشة حمى الكتابة..

نظرت إلى النيل، وقلت له: بريقك هو هو، ورسائلك هي هي، لكنك اليوم أرسلت لي جنيةً لتعبث بي! أهي طريقتك المستجدة لإغوائي بالبقاء؟! أأوجعتك بعض اعترافاتي على ضفافك في لقائنا الأخير؟! أتحاول كسر ذاك الخيط من أمل الانعتاق من الموت؟! أتدهشك أوجاعي حد حب تملك الذاكرة؟! لن تدمع عيني كما حدث آخر مرة.. ولن يلتقي الماء بالماء! ولن أتراجع.. لن أتراجع..

ورحت أفتح الرواية على تلك الصفحة التي تعثرت في إحدى مطباتها لتخرجني من النص إلى الواقع.. وها قد أعادني الهروب من الواقع إلى النص! إلى متى نهرب من واقعنا ونتوه بين أسطر ما نقرأ أو نكتب؟! دعك الآن من هذا يا أنا! رحت أستعيد ضياعي بين أسطر الرواية..

لكن تلك الأنثى كانت ترتسم لي بين الأسطر، فأزيحها بأصابعي.. سؤال كتب نفسه على صفحة اللحظة تحت انعكاس أشعة الشمس على تلك الأسطر: أتعويذة فرعونية يا جنية النيل؟! وإن كنت ومهما كنت ابتعدي.. ابتعدي!

×××

عند التعمق سيرًا رحت أتنفس خليطًا من نفحات الأمل وثاني أكسيد الخيبة.. وعندما اشتد تعبي توقفت لأشرب كوب عصير قصب في شارع طلعت حرب، وجلست منبهرًا بغياب الطعم في اللحظة؛ وقلت في داخلي: لا الشوارع شوارعي ولا الأمكنة كلها أمكنتي ولا الزمن زمني.. غربة مقيتة تسكن الروح والجسد والأماني.. وطفل قديم يسكنني ما زال الشتاء مرافقًا له في كل خفقاته..

×××

الفصل السادس

- ١ -

يا عزيزي أنا بقربك الآن.. سنكمل الحكاية معًا ونكتبها لتتحرر من سلطة الوجع.. سأجمع حرفك مع حرفي ونبضك مع نبضي وألوانك مع ألواني في ريشة ترسم اللوحة حد الاكتمال.. لننتصر على كل فشل قديم في وضع نقطة نهاية لهذه الرواية، وتوقعها كما وقعت رواية انتكاسات ذاكرة، ونحتفل حتى الصباح معًا انتصارًا على كل خيبة قديمة..

×××

ابتسم في وجهي وكتب:

اشتقت إلى قهوة معصورة بكل مرارتها ووجعها.. وإلى شمعة عاشقة تتورط معي في ليلة بوح.. في ليلة مزدحمة بأنين الكلمات وبالرقص وبالجنون.. في ليلة ممطرة غزيرة المطر.. مليئة بالتناقضات في المشاهد.. مليئة بالثورات ضد الصمت.. وضد القحط في رغبة البوح؛ الذي إن تجاوزته سقى أرض الكلمات حتى تلونت أراضي البوح شعرًا ونثرًا ووجعًا..

اشتقت إلى تلك الأمسيات التي تجمعنا أنا مع الأنا في حوارية عميقة مع تشتت الأنا.. في زحمة صور ومشاهد يصنعها المطر ورغبة شمعة مراهقة وجنوني القديم..

اشتقت إليك يا أنا حين تكتب وحين ترسم بالدمع والدم والنبض والآهات رسومًا خرافيةً على شوارع الذاكرة وممراتها صورًا ثلاثية الأبعاد

تتحرك وتتنفس وتصرخ: أين أنت أنا؟

×××

في تلك اللحظة انقطع التيار الكهربائي.. أكان قدرًا يسهل انسيابية الآتي من البوح؟

– قلت لك يا عزيزي في أول البوح أن تجاوزْ حصار الصمت واكتب، وأنا بقربك؛ ومعك ولك كيف شئت حتى تصل أنت إلى أنت وذاتك ... وأنا أصل إلى حلمي باكتمال النص!

– كثير من الأوراق.. كثير من الأقلام.. كثير من علب العصير وأكواب الشاي وفناجين القهوة.. كثير من المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية مختلفة الألوان كألوان الأقلام.. كثير من سحر الطبيعة.. كثير من الغياب في خلوة عميقة جدًّا للكتابة وحسب.. كثير من العقل والتأمل، وكثير من الجنون والعبثية.. كثير من الصور المتداخلة، وآلة تصوير تؤرخ هذه المشاهد.. أتمنى هذا عميقًا لأكتب ما أود كتابته..

آه يا حبيبتي؛ أما هذا الظلام المحيط بنا فهو يذكرني بأيام الكتابة تحت ضوء الشموع، ويذكرني بطعم القهوة الجزائرية، وبكثير من الأوراق التي كتبت فيها باللون الأسود في الليل الأسود عن اللون الأسود وأنا أرتشف القهوة بلونها الأسود عن حكايات تشبه حكاية «الأسود يليق بك»[1]، لكن بوجع أسود. هل يمكن لك تقديم فنجان قهوة لحبيبك؟

– أنت تأمرني.. لكن ما رأيك أن نصنعها معًا؟ أنت بلمسات يديك وأنا أضفي عليها النكهة التي تشتهي؟

١- عنوان رواية للأديبة أحلام مستغانمي.

– فكرة ممتازة!

– ...

– لكن أستسمحك في مغازلة رقيقة في حضورك لهذه الحاضرة بيننا..

– أرني ما تجود به قريحتك!

– خذيني إليك.. لا تتركيني في زاوية المكان يتيمًا.. انسكبي في شراييني انسكابًا، وطوفي في روحي، واملئيني..

امتلكي الذاكرة، وأشعلي في جسدي المرارة الكاملة التي تؤرخ للمسكوت عنه، وعن هذا الكون تنسيني..

ارقصي بين شفتي رقص الولهانة المسكونة بالأنا، وفي لحظة سكر اصرخي في وجه وحدتي، ومنها انتشليني..

تعالي إلي.. ليلي بائس موجع كطعنات أمسي.. اكسري نغم الوحدة في مدينتي.. تعالي إلي؛ آنسيني..

واسكبي أنفاسي على ورق يرتعش شوقًا لنزفي.. الحكاية طال كبتها وفي البوح راحتي – يا قهوتي – وأنسي..

×××

رائع البوح والأنفاس، إنه – رغم الوجع – يجد الطرق المختلفة كي يطوع الحرف لخدمة المشهد..

في تلك الظلمة الرقيقة التي لا تزيل سطوتها المطلقة إلا شمعة متورطة معنا في هذه الليلة؛ شغل مقطوعات موسيقية للعازف التركي «حسنو شلندرجي» على آلة «الكلارنيت»، وراح يرتشف القهوة على لحن ما يُعْزَف

ويتأملني لأزداد تألقًا وأنوثةً في حضرته.. كم اشتقت لهذه الثنائية الجامعة بيننا أنا وهو..

وفي لحظة تأمل صدمني بوحه الموجوع يكتبه بتدفق..

×××

فنجان القهوة انفلت من يدي كآهة فكت أسرها من صمتي.. سقط من يدي في لحظة رعشة وجع.. قهوة باردة حد النسيان زادت المكان فوضى وتكسرًا، وزادتني وجعًا.. وتلك (الكلارنيت) التركية البائسة الرائعة تزيد المكان تشظيًا.. تحت جنح ظلام مبهم التفاصيل كل ذرة مني تقول: آه.. وكل آهة تلد الكثير من مسببات الافتقاد الممتد عبر خيوط حكاية متخمة بوجع يشبهني ويشبه هذه الفوضى النازفة داخلي، وهذه المعزوفات الموجعة من موسيقى الموت تحطم أواني الورد والابتسامات..

إلى متى يا وجع؟إلى متى يا اغترابًا بنكهة الموت؟!

×××

- ٢ -

موجوع يا أمي..

(إضاءة خفيفة) يسير بخطى مرهقة.. يسقط على ركبتيه (يتضاءل النور حد العدم).. صمت.. صمت..

(لمحة نور تحيط به في حيز ضيق) يرفع رأسه يمد يده، كأنه يريد الإمساك بشيء..

أمي؛ في حضرتك أريد من صمتي أن ينطق وجعًا يتفجر في حضنك دموعًا تغسل خطاياي، فأنا موجوع بكفاية لكتابة حكاية بامتداد عمري السابق والآتي..

×××

القهوة في آخر لقاءات الشفاه صارت بلون الغربة، والسكر تراءى لي في داخلي زلال موت حليت به فنجاني.. سحقًا لماض ما زالت رواسبه في الكلمات وطعناته تنزف عندما تأتي بعض المساءات مشابهةً للحكاية القديمة..

وقف أمام المرآة يتفحص ملامحه المترهلة، وسأل نفسه: من أنا؟ لم أعد أعرفني! تنهدت الشمعة المضيئة بعض عتمة الليل، وزادت مرارة القهوة أثناء انسكابها في فنجانه الثاني.. عاد إلي يجر أنفاسه المثقلة في العتمة.. تنهد وقال: ما أقسى هذه الغربة!

×××

في لحظة انشغال بهاتفه المنبعثة منه تلك المقاطع الساحرة جمالًا ووجعًا حد الغرابة من التقاء النقيضين في فنجان واحد.. نظر إلي يخبرني

برسالة فايسبوكية من صديقه مراد يسأله: كم مضى من هذا الليل العجوز؟! قال: بعض ساعات متثاقلة وشوق يحترق كشمعة!

أيها الليل ما أصعب هذه الليلة على قلبي! هكذا كان رده بعد آهة متخمة بالحكايات الممتدة بيننا وبين أبخرة القهوة وذاك السؤال العابر للمدى!

×××

عندما سقطت دمعة من عينه سارعت إلى احتوائه.. كان يبتعد عني – غير عادته – ويتجه إلى النافذة ليفتحها بعد معانقة أول شعاع من الشمس للمكان، ثم استدعاني إليه، أحاطني بذراعه المرتعشة الدافئة يخفف عني وجع انسحابه الأول وقال لي:

ذاك الحنين يتغذى من نور الشمس ولألأة النجوم ويغتسل بحبات المطر ويتنفس عطر الحلم وله نبض من دواخلنا أنى له أن تنهكه السنين!

×××

بعد سكتة تأمل في رحاب ذاك الأفق المتوهج لرغبته الجامحة في البوح استدراكًا لما فاته من الزمن راح يكمل حديثه:

– أتمنى الرحيل إلى مكان بعيد عن قوانين البشر، وعن صراعات الماضي والحاضر والآتي المبهم كي أجدد روحي، وأستعيد بعضًا مما فقدته، وأعزز ما اكتسبته، وأجدد طاقتي للآتي..

– القوي من يجابه هذه الصراعات ويستمد أوكسجين الحياة من صبره والرضا بما قسمه الله له..

– هي نوبة كتابة.. أن نكتب كل تناقضاتنا فتلك شجاعة أدبية.. نواجه كل أزماتنا بالمواجهة أحيانًا وبالحلم أحيانًا؛ كي نصنع توجهاتنا

للآتي اليائس من تكسره وأوجاعه حد الملل من حياته، والحمد لله على نعمتي الرضا والصبر..

– إذا كان كذلك فأنا معك أسمعك..

– يوجعني أن تجمع أخبار كتاباتي من خارج مساحات التقائنا.. كيف لي أن أكتب لها الوقت كله ولا أجد منها ذاك الفضول عما أكتب وكيف أكتب وما الموجود وراء الكتابة..

يوجعني أن تنام في ليلة تاركةً أزيد من نصف قصيدة دون استماع ودون تطييب خاطر في اليوم التالي عن خطيئتها في حق القصيدة التي كتبتها لأجلها.. عندما امتدت الحكاية بهذا النسق الموجع ثرت وكتبت:

لست ملهمتي بعد الليلة..

..

أيتها العابثة بالروح..

يا من ترحلين قبل إنهاء القصيدة..

وتتركين الكلمات حُبلى بالوجع..

أسهر الليل كتابةً..

وترحلين رحيلًا عابثًا بالآتي..

يا ملهمتي؛

كيف تتركين القصيدة منبهرةً برحيلك؟!

وهي سهرت لأجلك ليلةً؛

تخيط من خيوط الليل ثوبها،

وترصعه بالنجوم،

وتتعطر من قاموس اللغة
كي تليق بك ساعةً من الدهشة..
..
أنت مُقَالة من سيادة الحرف..
ولن أحفل برحيلك مجددًا..
فلست ملهمتي بعد الليلة..

×××

ابتسمتُ بخبث الأنثى الإنسية من فرضية امتلاك مملكة البوح ملهمةً مطلقةً له وهو يُقِيلها من مكانة كانت لي زمنًا حصريًّا..

هل أعود إلى تملك الذاكرة بكل امتداداتها؟

أعتقد ذلك! من أين لي هذا الخبث؟

كنت دومًا حيادية المشاعر وكنت دومًا أحبه لذاته ولا رغبة لي في تملكه، فهل هي بوادر التحول إنسيةً؟ أم هي انعكاسات أرواحهن اللائي مررن من هنا؟

توقفت عن هذه الابتسامة، ومسحت جبيني خجلًا من وجعه وخجلًا من ذاكرته وعدته إليه أحتوي همسه..

×××

بعد الاغتسال بأشعة الشمس خرج من البيت.. توقف على رصيف الشارع ينظر إلى السيارات المارة بجنون، والتفت إلي ليقول لي: التقيت بالموت يومًا.. صافحني دقيقةً.. جلس بقربي نصف ساعة.. ابتسم، وقال: لست المراد اليوم ورحل ...

هوامش الحادثة: (١): موعد جنازة مؤجل! (٢): عويل نساء توقف! (٣): أُلغِيت كل خطابات النعي!

استمر في المشي باتجاه محل عمله، وأكمل حديثه معي موجوعًا وساخرًا: تُشَيع جنازتي كل يوم ولا يبكيني إلا أنا، وأعود كل مساء لأمر من هنا – يشير إلى أوراقه – أسجل بوحًا ونبضًا وأحاديث بكل تناقضاتها ومدها وجزرها، وفي آخر المشهد أسير بروحي إلى مدفنها ولا يبكيني إلا أنا..

×××

في ذاك المساء الغريب جدًّا كان تعب بدنه ظاهرًا عليه فوق العادة.. لكن راح يعاند صمته ويتحداه بما تبقى له من طاقة وكتب:

م ت ع ب..

مدينتي تعبت؛ عيونها باكية ...

(م)؛ مدينتي: أنفاسي.. أحلامي.. أناتي ... وكثير مني: كلها رسم لتفاصيل مدينة لا تحسنين التجول فيها ...

(ت)؛ تعبت: نعم؛ تعبت مدينتي من (انتكاسات الذاكرة) كلها، وكتبت عصارة فصل طويل من الوجع روايةً ...

(ع)؛ عيونها: آه؛ إن عيونها مشتاقة لمساحة أكثر اتساعًا؛ وقد ضاقت أمامها فصول الحكاية بما رحبت ...

(ب)؛ باكية: بكاءً شديدًا؛ بكت عيون المدينة أمام تصفيقك وأنا أقرأ شيئًا مني، فما أكتبه – عزيزتي – ليس نزوة كاتب، إنما هي مشاعر كاملة تصرخ وتقول لك: أنا إنسان متعب ...

×××

عند الإيقان أنه وصل إلى عتبة الصبر رحل عن المكان باتجاه بيته.. ودخل الغرفة بكم هائل من التعب.. كل ما ذكره أنه لم يعرف كيف وجد نفسَه ممددًا على ظهره، وعينيه معلقتين في السقف..

كان المكان موحشًا صامتًا حد الفزع من الأنفاس التي تقاوم كي تثبت أن في الجسد حياةً.. كان بياض السقف غريبًا، وكان يشتد أكثر وأكثر، وكان كله يتثاقل حد التعب من كله..

كان البياض من تضخمه يسقط في عينيه، وكان يقاوم سيطرته عليها بأن يهربها برأسه يمينًا وشمالًا بزاوية كانت تتقلص حدتها حتى استقرت مباشرةً باتجاه قلب السقف ليغزو البياض وعيه المتبقي، ثم انطفأ البياض وتوقف كل شيء..

– نزار.. نزار؟

– نعم!

– ما بك؟

– أنا بخير! ما الأمر؟

– (الجار صارخًا) باب الشقة نصف مكسور! وها أنا كسرت شباك الحمام.. خلف الباب سيدتان جفت مآقيهما بكاءً.. انظر إلى هاتفك؛ فرغت بطاريته بعد مئات الاتصالات المستمرة.. وتقول أنك بخير، وتسأل ما الأمر؟

لما استجمع قواه وجدته مدهوشًا من الزمن المسروق من ذاكرته! إنه لم يكن هنا! كانت الحكاية ساعة غيبوبة!

×××

في آخر المساء جلست بجواره ألاعب شعره كعاتي، وأستمع إلى همسه.. كان متعبًا حد الخوف وحد القلق.. نظر إلي وآثار غيبوبته ما زالت تربك توازنه، نظر إلى أفق ممتد يخترق كل حاجز أمامه وتنهد وقال:

أرضي تجف وجسدي يذبل، وهناك بعض مني يحتضر.. سأرحل بعض الوقت لأجمع شتاتي.. وأعالج الكثير من الجراح النازفة.. إن غبت مطولًا فاعلموا أني مت وانتهت الحكاية.. لا تبحثوا عني أين دُفِنت فأنا أسكن قلوب من أحبني..

إن عدت فلأن هناك الكثير من الحكايات ستزهر.. لا أريد العودة بكثير من الوجع.. سأرحل الآن لأسكن بعيدًا.. بعيدًا جدًّا..

لقد أفزعني حد البكاء.. خشيت أنه كان يحتضر وهو يرتعش بين يدي ويتحدث عن الرحيل بنكهة الموت..

×××

- ٣ -

حاولت أن أجمع كل الفوضى التي على مكتبه وأنظم أوراقه لحالات من البوح لا تتوقف إلا بإمضاء أخير للنص اكتمالًا وميلادًا.. كرست كل طاقتي لينبعث نفسه من جديد في امتدادات للنص بعد أن رأيتها تتسع وتتقدم بسرعة تجاوزت كل خيبات الكتابة في سنوات مضت دون اتضاح للصورة..

ها هو يكتب ويكتب.. ها هو في عالمه المتصل بالنص منذ أيام.. كان يتحدث عن بداياته بشغف العاشق وانتظار المشتاق.. كان يبتسم وهو يتذكر تفاصيل القصة والحكاية التي قادته إلى تغيير الاتجاهات كلها نحو أنثى تنبعث من بين حرفه نجمةً وأسطورةً تضعني جانبًا وتنزلني من مرتبة الحبيبة إلى مرتبة الصديقة..

تلك الأنثى المدهشة خرجت من النص إنسيةً تدفع الباب بيدها بعنف وتقول له:

– صمتك مريب يا عزيزي، وهذا الانزواء عني يثير أعصابي!

– أتغارين من نص يمتلأ بك؟

– بل أريد أن تمتلأ بي أنا لا بالنص!

–ولكني أكتب لأجلك وتعلمين أن الكتابة روح أخرى وأنفاس أخرى ووطن آخر كلما غصت فيه ازددت قربًا منك، وأنت تصنعين المسافات العبثية، وتُهَجرين كل الصور التي ارتسمت بين يد لأجلك.

– سفسطة كاتب لا يعترف بأنه تغير.

هناك ثارت مشاعره وانتصاره لذاته ونصه وحبه لها عليها..

– لماذا؟ لماذا تفسدين نكهة الكتابة والكتابة لأجلك، لماذا تلزمينني

بأن أضع نقطة توقف طويلة وأطوي القصائد التي تتغنى بك، وأعاود فتح فصول الوجع وأكتب بنهم خيباتي الأولى.. لماذا تعاودني الزلازل بعد كل ترميم لنكبات أمسي.. لماذا صرت أنت عنوان وجعي الأكبر في الحكاية.. الحكاية يا أنت قسمتها حكايات هروبًا من حتمية موتي في آخر مشهد..

في لحظات وجعه قام ليفتح شباك غرفته ويتنفس هواءً جديدًا حيث هواء غرفته صار ملوثًا بكم هائل، وراح يقبض على بعض أوراق بعنف؛ كأنه يسلط عليها غضبه وحزنه وفوضاه، وراح يتمتم بكلمات لم أفهم أولها لتقطع أنفاسه الممزوجة بالدموع، وكأن الأبجدية تعيد ترتيب نفسها لتليق بحزنه..

راح يهمس لي داخليًّا بعد أن رسم خطًّا وهميًّا بين نقطتين سابحتين في فضاء تشتته وسمى الأولى ألفًا والثانيةً باءً.. وصنع بينهما مسافةً رغم اقترابهما في أبجدية العربية بكل تصنيفاتها (أ، ب، ت ...) أو (أبجد هوز ...) ... وراح يسلط وجعه على المسافة بين الحرفين لتتسع أكثر ويخاطبني بألفبائية وجع تستفز كل الحضور..

أ _____ ب ... هل ترى الفراغ بين الحرفين؟ هو ليس فراغًا عبثيًّا! يحمل الألف فوق كاهله وجعًا كلما زاد نزفه – بعبثك به – زاد اتساع الفراغ.. لا تتخيل أن الخط الذي يسبح فيه الحرفان ممتد استقامةً.. قد يسقط في أي لحظة في هوة الانتهاء، ولا يعود بمقدورك رؤية الألف يا حرف الباء!

×××

في ظل تلك الفوضى لم تؤمن إلا بالانتصار لذاتها ورحلت عنه.. وإن

كان ابتعادً لساعات لكنه كان موجعًا بعنوان ابتعاد ساخر من كل الانتماءات للكتابة التي امتزجت جيناتها بجيناته قبل أن يعرفها بسنوات بعيدة..

ورغم ذلك لم ينكر أنه يحبها وأنها تصنع بهجته في تلك الفواصل التي كتبها عنها.. عن لقاءاتهما الأولى.. عن تلك الحكايات الممتدة بين وطنين وروحين وبيئتين وانتماءين وثقافتين وشخصين يحملان الكثير من التفاصيل..

راح ينزف حرفًا في سرديته المرتجفة كجسده وكذاكرته المثقوبة، حيث وجدت الكثير من الفراغات بين الأسطر أكملت بعضها والبعض الآخر سقط مني لأني لم أحزها في سنوات إقصائه لي من ذاكرته.. وراح يكتب بوجع ممتد:

مزاجي أنت، وأنت غائبة! غائبة ضحكاتي؛ الحاضرة منها سخرية! سخرية أن نضحك، ونحن تحت مقصلة الوجع! وجع صار مداد حرفي، وحرفي تائه في رسم تفاصيل ألم! ألم عميق كتبني منذ الصباح، وفي لحظة طيش أفسد مزاجي!

×××

ثم فجأةً ثار ورمى أوراقه أرضًا.. وراح يصرخ بكل ما احتواه من نوبة جنون وغضب ووجع:

أنا المواطن الهزيل والمتعب في مملكتك.. أيتها الملكة على الذاكرة لا تغتري بمنصبك! فالمملكة أرضي وأعرف كل ممراتها وخرائطها، وبإمكان إقالتك بقرار مجنون جنون عبثك بي..

لا تعتقدي أن التاج يخلدك، فلا عسكر في الجوار، ولا انتخابات مزورة، ولا أمم متحدة ولا أمم طاغية بإمكانها أن توقف جنوني الأصيل الذي قادني إليك أول الحكاية..

راجعي الذاكرة وراجعي حكاية وجعي.. لم يعد يهمني شيء وأنا المرمي برصاصك كل مساء.. احذري رصاصةً تغتال صبري! فهو آخر من تبقى بين من كان يحارب لأجلك!

×××

— ٤ —

كم عيدًا مر من دون فرحة؟! كم عيدًا خرجنا فيه إلى العالم في كامل أناقتنا وبكامل انكسارنا نبتسم مجاملةً وفي عمقنا فقدنا طعم الاحتفال؟!

حيث الكل كان يحتفل بالعيد كان يلخص يوم العيد في ساعة واحدة، واقتصر على تحية من صادفهم بعد صلاة العيد ثم أهل زوجته وزوجته؛ وهو يغطي وجعه بثوب الإرهاق والتثاؤب الذي يصنع به مبررات فراره من المكان..

وعاد لينام فعلًا ساعتين وبضع ساعة لتوقظه أشواق فوق إدراك الحرف لوصفها.. وحيث أنه يهوى الطبخ صنع لنفسه غداءه وراح يصف لي بعض التفاصيل المرافقة له..

×××

كان غدائي طبقًا من العدس الأسمر على الطريقة الجزائرية.. بروح جزائرية.. بنكهة جزائرية.. بلمسات جزائرية.. صببته في صحن من فخار جزائري.. أهدتنيه أمي.. أضفت عليه شرائح بصل نيء، وزيت زيتون جزائري من أشجار جزائرية..

مارسيل خليفة عندما كان يغني «تعاليم حورية».. راح يردد كلمة (أمي) بوجع انتزعني مني.. أمي.. أمي.. أمي..

رحت أمسك الصحن وأقبله.. لأن فيه لمسة أمي، وعطر أمي.. سقطت دمعة.. امتزجت بشربة العدس.. لمست روحي فيه ملحًا من وطني.. جزائري الطينة جزائري الملح والماء.. قمت أحضن علم الجزائر المعلق بشموخ أمامي.. وعدت أكمل غدائي..

راح «دحمان الحراشي»[1] يقول: «يا الرايح وين مسافر.. تروح.. تعيا وتولي».. آه من الأسفار، ومن المسافات! سأعود يومًا يا وطني.. سأعود يا أمي..

لكن كيف ألتقيك بهذا الزخم من الوجع، وأنا أمام ابتسامتك الصادقة الوحيدة أخجل من حزني بين يديك يا أمي؟!

×××

قالت لي أمي يومًا إنهم غرسوا شجرة زيتون وسموها باسمي، وهي تنمو وتتألق.. لقد غرسوا في قلبي شوقًا للقاء غاليتي: شجرة الزيتون..

×××

روحي صارت تسكن شجرة الزيتون وضحكة إخوتي.. أبكي دمعًا حارًّا شوقًا إليهم وإلى ذاك التراب من بلدي في الجزائر.. صرت أخاف الموت دون رؤيتهم، ودون الاغتسال بأشعة وجه أمي..

×××

في مسارات الشارع الممتد كان يمشي ويعيد ترتيب الصور والذاكرة فعجز عن ذلك.. نظر إلى السماء فلم يجد إلا العتمة.. نظر إلى داخله وجد الكثير من العتمة.. تأوه بعمق وهمس لي:

– دون خريطة، ودون بوصلة، ودون شمس، ودون نجوم ... مريع جدًّا أن تتوه في صحراء وجعك ...

داعبته مخففةً عنه وقلت له:

– ابتسم يعقب الشتاء ربيع بهي..

١- قامة من قامات الغناء الشعبي الجزائري صاحب رائعة «يا الرايح» التي تُرجِمت إلى عدة لغات.

فقال لي يسكتني ويوقف محاولاتي في استدعاء ذاك النور الباهت داخله:

– كذبة.. ابتسامة آذار كذبة الشتاء على الفصول.. في أرضي يأتي الخريف قبل فصلين من معاده.. بعد الشتاء يأتي ليضرب استقرار المجرة.. كذبة.. كذبت كل الأقاويل التي تقول إن بعد الشتاء يأتي الربيع.. ذاكرتي أصدق من جميع النظريات والرؤى.. كتاباتي مرآة؛ من لم يرني فيها لن يفهمني بالمرة..

×××

قالت الأرض للمطر: إهمالك يقتلني، وحضورك في غير مواسم احتياجي يلغي بريق حضورك في ساعات احتضاري.. لا ماؤك ينفعني ولا حضورك يشفع لك..

×××

أيها المطر، وأيها الحرف، وأيتها الأنثى الساكنة بينهما.. رأفةً بروحي المتعبة من كثرة الأسفار ومسافات الرحيل..

×××

–أما آن لهذا الوجع أن يتبدد؟

– نبحث عن منافذ ليتبدد أو نموت على حلم أن يتبدد..

– لو أنك لم ترحل؛ لما تحملت تبعات كل هذا الوجع والاحتراق!

– (لو) إعرابها: أداة وجع مرفوعة بنزف قلب تسبق كل أمنية مسروقة..

– ...

– في قلبي مسارات حلم ملغمة، وفي شوارع الياسمين انتفاضات وحجارة ضمن الصورة، وزجاج مكسور يدمي قدمي.. ورغم وجع المشهد أبتسم لأن الخوف انسحب من هنا، وها أنا أسمع ضحكات الأطفال في الجوار.. أستمر توغلًا في المدينة.. هناك حيث وصلت..

صدمتني رائحة ثورات الربيع والانقلابات الناعمة والمسلحة العنيفة.. والخوف أراه يتسلط ويتبجح ويتوعد.. أراه أشد بطشًا ليبتز وعصابته الماضي والحاضر لقهر الآتي..

في صراعات بقاء بين الأضداد هناك سقوط لأرواح الورد والأماني، وهناك نزف أشد من نزف قدمي بحجم عمر راحل.. أبتعد عن الصراعات لأتوغل في عتمة موجعة بلا رفيق وبلا أنيس وبلا يقين؛ حيث الارتياب صنع صنيعه وتسلط..

الرابعة صباحًا حيث السكون يطغى على المدينة البشرية.. أنظر عبر الشباك إلى العالم أتنفس هواء الصباح ولا أجده يكفي حاجتي.. أختنق حدًّا يصرخ داخلي حرفًا ينسكب هنا ثورة حلم.. أسمع صداها بعيدًا ينادي: ارحل.. ارحل.. ارحل بنا قبل أن نهلك.. ارحل بذاتك، فذاتك تحتضر..

×××

لم تعد تمطر فرحًا ساعاتي.. لذا وجب الرحيل.. وقد قررت الرحيل.. ومتبق لي بعض التفصيلات: الانتهاء من (انتكاسات ذاكرة) و(الوجع الغريب) كتأريخ لفصلين عمريين عميقين مني، ثم؛ كم كتابًا سأحمله ليرافقني في رحلة الانسحاب من إدمان الأماكن، وكم ذاكرةً دونتها لتحكي الذي كان، وتؤسس ربما للذي سيكون، ثم؛ اختيار تاريخ تقريبي؛ بقربه

يتحدد تاريخ فاصل لا رجوع فيه، ثم؛ حجز نهائي، ثم؛ خطاب اعتذار يليق بأناسٍ يُعَدون على الأصابع تعلقت بهم، وخطاب اعتذار يليق بالأماكن التي تعلقت بها، وآهة عميقة أطلقها تحررًا، وضحكة سخرية من نفسي الموبوءة بالوجع وما زالت تقاوم..

×××

– ٥ –

بعد أسبوعين من الانشغال الكلي عن النص أتيت لأضيف بعض المشاهد على عجالة، فراحت تسألني وهي تؤرجح ساقيها على بعض أسطري وتتمسك ببعض الأحرف كأرجوحة وتبتسم:

– خلتني فقدت بريق حضوري بين حرفك فلم تعد تغازلني كما كنت! أما زلت ملهمتك؟

– صدقًا تريدين؟ أم كذبًا يسعدك؟ ثم مهلًا؛ كفاك طيشًا بهذه الحركات التي تشتتني وأنا أكتب..

قالت بعد سكون ورعشة صدمة:

– أريد الصدق!

– لقد تحررت من سلطة الشخص ورضيت بسلطة اللحظة.. تلهمني اللحظة ولا يعنيني ذاك الذي يمارس النص داخل المشهد، لأنه ينفذ ما أريده، لذا نظرية الإلهام أو الملهمة تحديدًا لم تعد ذا أثر في نصي..

«انتكاسات ذاكرة» كلفت صديقًا بمراجعة لغوية لها، وأما هذا النص، فإني أعلمك أن هذه الليلة هي الأخيرة بوحًا، وبقي مشهد واحد سأوكله للصديق ليضع بصمته إكرامًا له.. وحتى العنوان برئت من وجع اختياره..

هذه تذكرة الطائرة؛ حيث الرحيل غدًا، وهذه خطابات اعتذار لأحبة لي لا أريد أن أراهم وأنا أرحل خشية البكاء، ولا طاقة لي على البكاء ولا رغبة.. وخطاب اعتذار للنيل وللقاهرة.. أما الآهة والضحكة الساخرة من نفسي ستكونان عند أول ارتفاع للطائرة حتى لا تكون هناك مراجعات لأبعادهما قبل الرحيل..

×××

في اليوم الموالي كانت رحلته مغادرًا المكان.. الراوية كانت مذهولةً حد الإغماء وهي تراه يرحل مجددًا عنها، وقد بدا جادًّا في رحيله ولم يقم اعتبارًا لكل التضحيات والأسفار التي استهلكت فرحها حتى تلقاه..

كانت تنفلت من يدي وأنا أحاول تهدئتها وتلاشت مع أول خيط نور لتسجل الرحيل الثاني.. وأجدني وحدي بين كم هائل من الذاكرة المسكوبة على الورق.. ورسالة منفردة حركت شيئًا من المسكوت عنه داخلي: «لا تموتوا بعيدًا عن التراب الذي عُجِنْتم منه، فللتراب شوق وآهات افتقاد لا تهدأ إلا بالعودة إليه!»..

– لن أتحدث عن نفسي أنا، فلا أريد أن أكتب سيرةً ذاتيةً.. الأفضل أن أكتب عن آخر..

هكذا قال لي في بداية روايته، حيث تقمص دور الراوي، وسير النص لأيام، لكنه وجد نفسه في مأزق وهو يتحدث عن نفسه، وواقعًا في ورطة فكرة السيرة الذاتية؛ لذا لجأ إلى وضع صديق له يسير النص، ثم اكتشف عدم جدوى الحكاية؛ فاستعاد سلطة السرد، لكنه وبسبب صراعاته ألغى فكرة الاستمرارية مرةً أخرى للأسباب ذاتها، وهجر النص كله حتى انبعثت لي فكرة ذاك الرسام الذي التقاه في قسنطينة..

وحرصًا مني على دفعه – أي صاحب النص – للاستمرار في الحكاية التقيت بصديقه في مشهد من مشاهد النص فعرضت عليه – على هامش البوح – منصب الراوي، فاعتذر عن ذلك بحجة أنه قيد نص آخر لا يستطيع التحرر من سلطته الآن، وأنه لم تتكون كل تفاصيله الشخصية لقيادة نص..

بعد عودتي له أخبرني عن فكرته التي أبهرتني ووعدته بالمتابعة إلى أن

يكتمل نص قريب هو بطله الأول.. ثم عاش النص ورطتين: ورطة الإهمال أشهرًا عديدةً دون اكتراث به، وورطة الراوي لولا تلك الأمسية القريبة من أول يونيو التي ابتعث فيها أنثاه اللاإنسية في نصه «انتكاسات ذاكرة»، فأنقذت الموقف، وجعلت النص خلال شهرين ونصف ينتفض وينتصر على تراكمات دامت أزيد من خمس سنوات شككتني في انتصار النص أصلًا..

لكن؛ قبل الانتهاء أجده يثور عليها ويرحل ويترك النص مرميًّا هنا.. وإنه من العبث أن أترك نصًّا هنا دون اكتمال بحثًا عن راوٍ لنص بطله استقال منه ورحل.. وترحل بعده راوية كان جل هدفها أن يكتمل النص..

هل يمكن للخيبة أن تكسر رغبتنا في الانتصار ونحن نراه على بعد خطوة؟

ربما لا يحلو ذاك الفوز بوضع نقطة نهاية والحبيب يرحل! هكذا رأيت انكسار الراوية وخروجها الموجوع من النص، وورطة دخولي في النص إجبارًا لأجمع شتاته وأوصله إلى آخر الطريق..

أنا «لخضر بن الزهرة» أقر بتسلم نص الرواية لبطلي وأكتب بالنيابة عمن رحلوا عن النص وتركوه كخيمة مهجورة في قلب صحراء وجع ممتد حد الموت..

وإذ لا مجال للبحث عن راوٍ في منتهى الرواية سأتحمل عناء وضع عتبة الخروج، وأعد المارين من هنا أن أبحث عن هذا البطل وعن هذه الراوية وإن اقتضى الأمر ابتعاثهما في نص آخر إجبارًا كما صنعوا بي في هذا النص.

لكن هناك ورطة أكبر وأنا أرى النص شبه مكتمل أو مكتملًا حقيقةً

لكن دون لوحة إرشادية إلى فصوله. إنه يفتقد إلى حد الآن عنوانًا مستقرًّا نهائيًّا، لكني وجدتني بعد حالة من توقفات باحثة أعتمد على كلمات مفتاحية انعكست في تفاصيل الحكاية، وصنعت منها عناوين مقترحة: «انتكاسات روح»، «غربة روح»، «غربة روح باتجاهين»، «غربة روح بجرعة زائدة»، «غربة بجرعة زائدة»، «انتكاسات بجرعة زائدة»، «وجع روح مغتربة» ...

اضطُررت ابتداءً إلى العودة إلى «انتكاسات ذاكرة» كي أقرأ الحكاية من أولها؛ حيث إنه يروي تجاربه العاطفية الجارحة، والكم الهائل من الاغتراب بين الأهل والخروج من المشهد انكسارًا..

وحيث إن الرواية الثانية التي بين أيدينا؛ تُعتبر بداياتها تحد للألم القديم الوارد في الرواية الأولى، لكن تأتي الخيبة لتعصف بكل شيء، وحيث إن الذاكرة جزء من الروح فإن الانتكاسة تشمل كل مقومات الأنا؛ أي تضرب الروح في العمق فتكون انتكاسات أخطر..

البطل بعد اغترابه عن أهله يجد اغترابًا آخر في بلد آخر يعمق وجعه وبحثه عن ذاته وطموحاته التي تُسرق من بين يديه..

في هذه التجربة لم يقدم الحب والزواج خلاصه بل عمق وجعه، لأن الأنثى كانت تكتفي به رجلًا وترفضه كاتبًا؛ وهذا ليس تنكرًا لكونه كاتبًا بل لأبعاد الفكرة وخطورتها في نظرها في مشاركة العالم لساعاته العمرية، وتلك الاحتلالات الصامتة التي تبعده عنها بين دفتي سفينة بوحه التي ترحل به عبر أفق بحر مبهم الأبعاد والمخاطر، وهي وإن لم تصرح بذلك فإن هذا الرفض البريء يعمق وجعه، وهو لا يستطيع الانقسام والتخلي عن نصفه ككاتب..

إن هذه التفصيلات تزيد الحكاية مدعاةً لامتداد لا نهاية له، ولا تبدو أنها ستنتهي ها هنا، وهذه الفصول المكتوبة بين امتدادات صفحات هذه الرواية تحيلني إلى بيان الآتي..

حيث إن كلمة (غربة) بأبعادها المحسوسة والملموسة وانعكاساتها النفسية في التحليل الممتد عبر رؤى واقعية وفلسفية تبدو لي شاملةً لمعاني الانتكاسات والوجع وذاك الامتلاء العميق لكأس الألم المتدفق من جهتين متضادتين: الماضي والآتي، والمكان الأول الذي يمثله الوطن، والمكان الثاني الذي يمثله البلد الآخر، حيث تكون جرعات الخيبة إن حدثت مضاعفةً وممتدةَ الآثار إلى الروح والجسد، وإن (الوجع) هي السمة الغالبة التي عكسها حرفه؛ فإني لهذه الأسباب ومن أجلها أكتفي باسمين: الوجع والغربة؛ ليكون عنوان النص الذي شارفنا على نهايته «الوجع الغريب» ...

×××

أخيرًا؛ انتهى النص وها أنا – بعد أن وهبتني شخوص الرواية النص كله بالاتفاق لأوقعه اسمًا وتاريخًا – أشد الرحال – أنا الآخر – بحثًا عمن يمكن العثور عليه في مشاهد أخرى..

جاري تسجيل الخروج ...

×××

لخضر بن الزهرة

القاهرة؛ 2016/08/18